"بسم الله الرحمن الرحيم"

جامعة الازهر
كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط
الدراسات العليا والبحوث
قسم الدعوة والثقافة الاسلامية

الدعوة الاسلامية فى العصر المملوكى

رسالة جامعية للحصول عل درجة التخصص "الماجستير"

إعـــداد الباحث

أحمـد رفاعـى إسماعيـــل

إشـــراف

الاستاذ الدكتور / هاشـــم عبد الظـاهـــر إبراهـــيم

عميد كلية الدراسات العربية والاسلامية بقنـا
والأستاذ بقسم الدعوة والثقافة الاسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة الاسلامية بأسيوط

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

شكر وتقدير وإجلال

" شكـر وتقديـر واجـلال "

أما الشكر فلله وحده الذى من على بهذا الفضـل العظيم وهذه المنزله الرفيعة . لذلك فأننى مقرلة - سبحانـه وتعالـى - بالشكر إلـى أن يـرث الأرض ومن عليهـا " وإن تعدوا نعمـة اللـه لا تحصوهـا ".

وأما التقدير والإجـلال فلأستاذى ومشرفـى الفاضـل والأب الرحيـم الأستاذ الدكتـور / هاشم عبد الظاهـر الذى لمست فيه خصالا قلمـا اتصف بهـا غيره . وهـذه حقيقة لا مجاملـة ، وواقع لا خيال .

لقد وجدته طيب القلب ، صافى السريرة ، ذا نزاهـة وخلق كريم فقد أمرنى بإرشاداته وتوجيهاته وكان يحمـل همى أكثر من نفسى فجزاه الله عنى وعن الإسلام والمسلمـين خير الجـزاء

" إنّ ربى قريب مجيـب "

المقدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قال "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ"(١) وأشهد ألا اله الا الله المعز المذل السميع البصير الذى إن أراد بعبدٍ خيرا فقهه فى الدين .

وأصلى وأسلم على من عترته خير عتره ، وشجرته خير شجرة ، نبتت فى حرم ، وبسقت فى كرم ، النبى الأمى الذى علم المتعلمين والذى نشر بالسماحة والأخلاق مبادئ الإسلام والدين ، فأنارت بنوره البلدان شرقا وغربا .

أما بعد ،

فإن الناظر بعين المستطلع لأغوار التاريخ الإسلامى يعلم بما لا يدع مجالاً للشك أن الدولة المملوكية شغلت فترة كبرى وزمنا طويلاً من مسيرة الإسلام والمسلمين ومن تاريخهم المشرق العريق ، لقد شكلت الدولة الإسلامية المملوكية هى ومثيلاتها من الدول الإسلامية القلعة الحصينة لهذا الدين ، ووقفت تلك الدول شامخة فى وجه الطامعين سواء من الصليبيين أو التتار أو غيرهم ممن حاولوا أو ينالوا استئصال شأفة هذا الدين ، فما زلنا نذكر إلى يومنا هذا بطولات المنصورة ، وعين جالوت ، وسقوط قلاع الصليبية العالمية ، والتتار الهمج تحت معاول دولة المماليك المسلمة .

هذه الدولة التى لم تكن عربية المنشأ ، ولكنها أثبتت بكل جدارة أن الإسلام لم يأت لأناس دون أناس ، وأن دعوة هذا الدين جاءت إلى الناس جميعاً ، أسودها وأبيضها ، أحمرها وأصفرها .

---

(١) سورة فصلت آية ٣٣ .

" إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ "[1] .

ونظراً لما قدمته تلك الدولة من خدمة للإسلام والمسلمين اخترت عنها موضوعي هذا .

* سبب اختياري للموضوع :

١ - إنَّ الدولة المملوكية أثرت تأثيراً كبيراً في تاريخ الإسلام والمسلمين بفضل دعاتها ومنشآتها وانتصاراتها المدوية التي أنقذت البشرية من بحر من الدماء .

٢ - تعرضت الدولة المملوكية إلى كثيرٍ من الغبن والظلم من جانب بعض الباحثين المستشرقين الحاقدين على الإسلام والمسلمين ، وقالوا عنها إنها كانت دولة الرقيق والعبيد ، وقالوا إنَّها أكلت أموال الشعب ، وإنَّها دولة الصراعات والنهب والسلب ، فكان من واجبي كمسلم أنْ أدافع عن تلك الدولة المسلمة الغبن والجور الذي أحاط بها .

٣ - حققت دولة المماليك في مجال الدعوة الإسلامية نظاما يمكن أن تسير عليه دعوة المسلمين في أي عصر من العصور بنظامها ونظمها الإسلامية ومنشآتها الدعوية واهتمامها بالعلم والعلماء والمساجد والمدارس العلمية .

٤ - تحقيق العبرة المرتجاة القائلة أن المتمسك بحبل الله ما ضل وما قل وما ذل وهذا ما شاهدناه في تلك الدولة ، فعندما تمسكت بحبل الله المتين قويت وعزت وانتصرت ، وحين تخلت بعض التخلي حدثت فيها الفتن والمنازعات وكان ذلك سبباً لسقوطها في النهاية ، ولله

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

الأمر من قبل ومن بعد يعز من يشاء ويذل من يشاء .

محتوى البحث

منهجي في البحث :-

وقد اشتمل هذا البحث على : مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة

أما المقدمة : فقد ذكرت فيها :-

أ - سبب اختياري للموضوع .

ب - منهجي في البحث فيه .

وأما الباب الأول :

عنونته بعنوان " المماليك " وقسمته إلى ثلاثة فصول :-

الفصل الأول : تحدثت فيه عن المماليك من حيث أصلهم ونشأتهم والإختلاف حولهم وكيفية جلبهم وكيفية تربيتهم ودورهم في دولة الأيوبيين السابقة لهم .

الفصل الثاني :- تحدثت فيه عن الحياة السياسية والاجتماعية في العصر المملوكي .

الفصل الثالث : الحركة العلمية في العصر المملوكي تحدثت فيه عن تنظيم التعليم وأنواعه وبعض مدارسه وختمت الفصل بمظاهر الحركة العلمية في ذلك العصر وأسباب ازدهارها .

وأما الباب الثاني :

فقد عنونته بعنوان " المظاهر العامة للدعوة الإسلامية في العصر المملوكي " وهو أهم الأبواب بل هو لب الرسالة وعمودها وقد احتوى على أربعة فصول .

الفصل الأول : تحدثت فيه عن دور سلاطين المماليك فى خدمة الدعـــــوة الإسلامية .

والفصل الثانى : تحدثت فيه عن دور سلاطين المماليك فى الدفاع عن البـلاد الإسلامية .

والفصل الثالث : تحدثت فيه عن دور الفتوحات الإسلامية فى العصر المملوكى وأثرها فى خدمة الدعوة الإسلامية .

والفصل الرابع : تحدثت فيه عن أبرز علماء العصر المملوكى وأثرهم فى نشـــر الدعوة الإسلامية .

وأما الباب الثالث والأخير فقد عنونته بعنوان " الدولة المملوكية بين الشبهـات والسقوط " . وقد اشتمل على فصـــلين :

الفصل الاول : تحدثت فيه عن المزاعم والمفتريات التى أفتريت على تلك الدولة المملوكية ، وقد رفعت فيه بما وفقنى الله الغبن عنهم .

الفصل الثانى : تحدثت فيه عن أسباب وكيفية سقوط ونهاية دولة المماليـــك الإسلامية .

وقد ذيلت هذا البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها .

وبعد : فقد دانت هذه السطور لراقمها بالشكر العميق وقدمت فيها قـــدر طاقتى ، غير أنّ سياط الزمن أصابت بعض نقاطها فى مقتل ، وهذا إن دل فإنّما يدل على بشريتى وقلة حيلتى إنْ لم يسعفنى رب العالمين ، فإن أصبت فمن عند الله وإن أخطأت فمن نفسى ، ولله الأمر من قبل ومن بعد هـــــو مولاى ، وعلى الله فليتوكل المتوكلـــون .

الباب الأول

المماليـــــــــــــك

ويشتمل على ثلاثة فصول :

* الفصل الاول : نشأة المماليك
* الفصل الثانى : الحالة السياسية والحياة الاجتماعية فى العصر المملوكى
* الفصل الثالث : الحركة العلمية فى العصر المملوكى

الفصل الأول

نشـــأة المماليـــــك

الباب الأول

" المماليك "

الفصل الأول

" نشأة المماليك "

أصل المماليك :

للبحث في طبيعة المماليك تثور تساؤلات عديدة مثل من هم المماليك ؟ هل هم أرقاء أم أحرار ؟ وكيف أصبح مملوك اليوم سلطان الغد ؟ .

وفي الحقيقة أنّ المؤرخين اختلفوا في هذا الشأن اختلافا كبيرا فمنهم من عامل المماليك في كتاباته على أنهم رقيق اغتصبوا الحكم دون أن تكون لهم أهلية الولاية لأمور المسلمين بل أن هؤلاء الكتاب لم يكتفوا بذلك بل حاولوا الحط من قدر سلاطينهم وأمرائهم في أكثر كتاباتهم بأنهم عرضوا[1] بأصلهم الوضيع وما مروا به من رقٍ وعبوديةٍ فكان ذلك التشهير والحط من قدر أولئك الرجال الذين كانوا يوماً من الأيام سادة هذه البلاد وحكامها .

ونفى عنهم البعض صفة الرق نهائيا مثل الدكتور/ عبد المنعم ماجد حيث يرى أن كلمة(سلوك)في أصلها اللغوى مستخرجةً من فعل(مَلَكَ) لتعني الرقيق الذى يشترى بقصد تربيته والاستعانة به كجند وحكام على عكس لفظة (العبيد)مفردها (عبد) ومؤنثها (أمة) التى استعملت في العصر العباسى الأول . وذلك أن الإسلام بميوله الإنسانيه كان يرفع من شأن الرقيق إذ أن لفظة العبيد تعني العبودية[2] والعبد يولد من الرقيق بينما المملوك يولد من

---

(١) انظر / راسم رشدى : مصر والشراكسه ص ٤٥ القاهرة ١٩٤٨م .

(٢) انظر د . / عبد المنعم عبد الماجد : طومان باى آخر سلاطين المماليك في مصر ص ١٢ : مكتبة الانجلو المصرية ط ١٩٧٨ .

وأرى

أبوين حرين ويباع[1] . ونحن نرى خلاف ذلك حيث المملوك الذى يولد من إن

أبوين حرين ويباع يعتبر رقيقا . إذ أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم استرقوا بعض الأسرى طبقا لقاعدة المعاملة بالمثل وهم لم يبيحوا الرق فى كل صورة من صوره كما كان فى الشرائع الإلهية والوضعية السابقة وإنما حصروه فى الحرب المشروعة المعلنة من المسلمين ضد عدوهم الكافر[2] . أى أنّ أسير الحرب يعتبر رقيقا رغم أنه من أبوين حرين . وبناءً على ماسبق يمكن أن يكون المملوك رقيقا ويؤكد ذلك ما ورد فى القاموس القويم فى تعريف لفظة(العبد) . فالعبد بالنسبة لله الإنسان الحر أو الرقيق وكلاهما مملوك لله خاضع لحكمه وارادته أما العبد بالنسبة للإنسان : الرقيق المملوك ويجمع على جموع منها عباد وعبد : كخدم ، وعبد[3] : ومن ذلك قوله تعالى "وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ"[4].

وخلاصة القول فى المماليك الذين نحن بصدد الحديث عنهم : أنهم فى الأصل رقيق مستجلب من أصول قفجاقية[5] تركية أو شركسيه من جنوبى روسيا القوقاز . وكان هؤلاء يصلون إلى القاهرة صبيانا عن طريق الشراء أو فتيانا أو أسرى حرب أو هربا من دولة صديقة أو حليفة وفى القاهرة كانوا يخضعون لتربية عسكرية أو إسلامية لعدة أعوام حتى إذا انتهى تدريبهم

---

(١) انظر د . أحمد شلبى موسوعة التاريخ الاسلامى ص ٢١٥ : ٢١٨ حيث يتفق فى ذلك والدكتور عبد المنعم ماجد .
ويتفق فى ذلك لرأى د . راسم رشدى مصر والشراكسه ص ٥ : ٤٨ القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) انظر السيد سابق : فقه السنه جـ ٣ ص ٨٨ .

(٣) ابراهيم أحمد عبد الفتاح : القاموس القويم للقرآن الكريم جـ ٢ ص ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٦٣ .

(٥) قفجاقية :- تشمل بلاد القفجاك حوض الفلجه والأراضى التى حول بحر قزوين .

الجندية

جرى تحريرهم (عتقهم) وضمهم إلى الهدمية العسكرية المملوكية (١) .

فالثابت أن المماليك كانوا يعتقون عندما يسلكون فى الوظائف السلطانية أو بذلك اكتملت أهلية المماليك فى تولى أمور المسلمين وذلك ماتراه واضحا فى موقف العز بن عبد السلام حيث رفض مبايعة الظاهر بيبرس باعتباره مملوكا غير كامل الأهلية ولا تجوز له الولاية ولكن الظاهر بيبرس أثبت أنه أعتق فبايعه الشيخ وعلماء ذلك العصر . ولكن كيف وصل مملوك اليوم سلطان الغد ذلك ما سنتعرض له من خلال الآتى :-

أولاً : ظهور المماليك فى العالم الإسلامى :

يرجع ظهور المماليك فى العالم الإسلامى إلى ما قبل قيام دولتهم بأمد طويل وربما كان أول من استخدمهم هو الخليفة المأمون العباسى ١٩٨هـ - ٢١٨ / ٨١٣م - ٨٣٣م إذ كان فى بلاطه بعض المماليك المعتوقين ثم استخدم الخليفة المعتصم العباسى ٢١٨هـ - ٢٢٧ / ٨٣٣م - ٨٤٣م فرقان من الأتراك والتركمان لتدعيم سلطانه (٢) . وهكذا لعب المماليك دوراً بارزاً فى تدعيم سلطان الخليفة .

ثانيا : ظهور المماليك فى مصر :

اعتمد أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية التى قامت فى مصر سنة ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م على المماليك ويمكن القول بأنه أول من استخدم المماليك فى مصر فى جيشه وجلبهم إليها بأعداد ضخمة .

---

(١) انظر ابن العمرى مسالك المماليك ص ٤٦

(٢) انظر د . على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٢٣ النهضة المصرية ط ١٩٦٧٣ .

رجاء التمكن من

قيل إنهم بلغوا أربعة وعشرين ألف مملوك ، رجاء من التمكن لاستقلال مصر عن الخلافة العباسية ولم يكن الأخشديون أقل من أحمد بن طولون في استخدام المماليك(١) . وكذلك لجأ الفاطميون حين انتقل لهم حكم مصر سنة ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١٠٧١ م حيث كانوا في حاجة إلى جيش كبير يستطيعون به حماية سلطانهم فلجأوا إلى الأتراك وشراء المماليك . فلما قامت الدولة الأيوبية في مصر ٥٦٧ / ٦٤٨ هـ / ١٠٧١ - ١٢٥٠ م جلب سلاطينها أعدادا ضخمة من المماليك واعتمدوا عليهم في جيشهم وبناء قوتهم وقد راجت تجارة الرقيق من الجيش التركي والشركسي في أواسط آسيا وفي غربها فابتاع الملك الصالح نجم الدين أيوب عددا من هؤلاء الأرقاء فرباهم تربية عسكرية وأنزلهم بجزيرة الروضة وهؤلاء سموا بالمماليك البحرية(٢)

وقد ارتقى عدد منهم إلى المناصب الكبيرة أمثال فارس الدين أقطاى وعزالدين أيبك ، بيبرس وقلاوون .

ثالثا : طريقة تربيتهم :

نوعى

لعله من المناسب أن نلقي الضوء على تربية هؤلاء المماليك فالتربية تلعب دورا هاما في تكوين الشخصية وسلوكها وكانت تربية هؤلاء المماليك وتدريبهم تمر بمراحل متعددة ، فإن تجار الرقيق يجلبون أعدادا منهم يعرضونهم على السلاطين ، وكان السلاطين يختارون أحسنهم حجة وذكاء فإذا تمت عملية الشراء وضعهم السلاطين في أبراج خاصة بهم ورتبوا لهم من الفقهاء

---

(١) انظر / د . فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ص ٢٠ ودار المعارف ط ١٩٨٢ .

(٢) د . محمد محمد خليفة وذكي علي سويلم : الأدب الغربي وتاريخه ص ١١ .

والعلماء من يلقنهم الدين والعلوم ويأخذهم بملازمة الفرائض[١] . ولعل ذلك يفسر بلوغ بعض سلاطين المماليك مرتبة العلماء كالسلطان الملك المؤيد وغيره .

ويفسر لنا أيضا الحرص البالغ لسلاطين المماليك في الدفاع عن المسلمين وجهادهم العظيم ضد الصليبيين والتتار والذى يبحث في تلك المعارك يتضح له أن هؤلاء القوم لم يجاهدوا لغرض من أغراض الدنيا وإنما لإعلاء شرع الله . فكانت تلك المرحلة من مراحل التربية بمثابة قواعد لبنيان الدولة المملوكية . وبعد انتهاء هذه المرحلة ووصول المملوك إلى سن الشباب يوكل إلى مدربين عسكريين لتلقينهم النظم العسكرية وفنون الحرب وبعد ذلك ينتقل لخدمة سيده ليلحق بحرسه الخاص أو بديوانه أو بجيشه . وسواء كان عمله هنا أو هناك فإن مواهبه قد تدفعه إلى الصدارة[٢] وتولى الحكم

رابعاً : كيفية انتقال السلطة من الدولة الأيوبية إلى الدولة المملوكية :

بعد أن مات الملك الصالح الأيوبى انتقلت السلطة إلى ابنه الملك المعظم توران شاه[٣] . الذى نزل في قصر أبيه ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح

---

(١) انظر د . أحمد شلبى موسوعة التاريخ الاسلامى جـ٥ ص ٢٢ . مكتبة النهضة ط ١٩٩٠ .

(٢) انظر المرجع السابق جـ٥ ص ٢٢٦ .

(٣) توارن شاة : هو الملك المعظم توارن شاه بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبى بكر بن الامير نجم الدين أيوب . كان أبوه قد ولاه حصن كيفا في الشرق ثم كان يستدعيه فلا يجيبه فلما مات والده استدعته شجرة الدر . انظر : عقد الجمان جـ١ ص ٢٣ .

نجم الدين أيوب ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بموته بل كانت الأمور على حالها والدهليز الصالحي والسوماط ومجئ الأمراء إلى الخدمة على ماكان عليه الحال في أيام حياته وشجرة الدر تدير الأمور للدولة[1] مدعية مرض السلطان . ويدل هذا الموقف على قدرة وشجاعة شجرة الدر في مواجهة المواقف وتسيير الأمور . ولكن سرعان ما قتل المماليك توارن شاه[2] حيث قيل إنه أساء إلى المماليك وتوعدهم . وصار إذا سكر في الليل جمع مابين يديه من شمع . وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع ويقول هكذا أفعل بالبحرية[3] . فقتلوه شر قتلة . فقيل إنه اشترك في قتله ثلاثة أشياء السيف والنار والماء . حيث اجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفراسكور وهجموا عليه بالسيوف ؛ فهرب المعظم منهم إلى البرج الخشب الذى نصب له بفراسكور ، فأطلقوا في البرج النار ، فخرج المعظم من البرج هارباً طالباً البحر ليركب في جرافته فحالوا بينه وبينها بالمنشاب ، فطرح نفسه بالبحر فأدركوه وأتموا قتله وكانت مدة إقامته في الملك من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياما . وعقب قتله نادى كبار رجال الدولة شجرة الدر سلطانة على مصر وتلقبت بعدة ألقاب منها الملكة " عصمت الدين - شجرة الدر " والستر العالي والدة الملك الخليفة ودعى لها على المنابر ملكة المسلمين على أن الأحوال اضطربت على أثر توليها الحكم . فإن الخليفة العباسي نعى على أهل مصر أن تتولى امرأة

---

(١) انظر المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣ - القاهرة ١٩٧٠ .

(٢) انظر المرجع السابق جـ١ ص ٣٦ .

(٣) انظر العيينى : عقد الجمان جـ١ ص ٢٦ - تحقيق د . / محمد محمود أمين . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

العرش . ولم يتمكن أمراء المماليك من أن يحصلوا على موافقته على اختيارهـا بل على العكس رد الخليفة العباسي على طلبهم بقوله " إن كان الرجال قـد عدموا عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجالا . وتدل تلك الأحداث على الـولاء الخالص من المماليك لأستاذهم الملك الصالح نجم الدين أيوب حيث أنهم بايعوا السلطان الملك المعظم توران شاه ولكنه قابل الإحسان بالإساءة فكان جزاؤه القتل ولم يطمح المماليك فى توليهم السلطنة، حيث سلطنوا زوجة أبيه شجرة الدر وقدموا لها الولاء والطاعة وأرادوا أن يضفوا على حكمهـا الشرعية ولكنهم فشلوا بسبب الأحداث التى وقعت من عصيان وتمرد الملـك المغيث بالكرك[1] واستيلائه عليها وعلى الشوبك واستيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق ووقوع الاضطراب فى مصر مما أدى لاجتماع البحرية والأتراك وأجمعوا أنهم لا يمكنهم حفظ البلاد وأمر الملك لأمرأة[2] واتفق أمرهم علـى أن يفوض أمر الملك إلى الملك المعز عز الدين أيبك وكان أيبك عفيفا لا يمنـع

---

(١) الكرك : مدينة ذات قلعة تعرف بكرك الشوبك والشوبك أقدم منهـا والكرك مدينة محدثة البناء كانت ديرا للرهبان ثم كسروا فوسعوا بناءه وآوى اليها أناس من النصارى فقامت لهم بها معايش وآوت اليه الفرنج فأدارت أسواره فصارت مدينة مشهورة ثم بنوا حصنا فكانت قلعة فاستولى عليها الفرنجة . وفتحت فى زمان السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب . انظر " ابن فضل الله العمرى " مسـالك الأبصار فى ممالك الانصار ص ٢١٢ تحقيق دورد ويتا كرافولسكـى ٧٠٠ - ٧٤٩ هـ / ١٣٠١ - ١٣٤٩ م

(٢) الملك المعز هو أول ملوك الترك وهو السلطان الملك المعز عز الدين ايبك التركمانى يقال انه فى الأصل مملوكا لبيت فخر الدين بن تركمانى الذى كان متولى الاعمال الخيرية وارتجع الى بيت الملك الصالح نجم الدين أيوب ولم تزل تنتقل به الاحوال الى الملكة الديار المصريـة " بن ايبـك : كنز الدر جـ٨ ص ١٢ .

أحدا حاجة ولا يشرب مسكرا[١] وكانت سلطنته فى أواخر ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ أغسطس ١٢٥٠م ولكن لم تمض أيام خمسة حتى طالب المماليك الصالحون بأن يكون السلطان من بنى أيوب من بين زعمائه الأمير فارس الدين أقطاى والأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى والأمير سيف الدين بلقان الرشيدى . وتحت ضغط المماليك الصالحين اختاروا الملك الأشرف[٢] ملكا وكان صغير السن وحدثت وقائع بين المعز أيبك والمماليك الصالحين انتهت بعزل الأشرف من السلطة واشتغال الملك المعز أيبك بالحكم وبذلك زالت الدولة الأيوبية وانتقل الحكم إلى الدولة المملوكية وقد سبق أن تزوج الملك المعز صاحب مصر من شجرة الدر ولكن لم يستمر ذلك الحال كثيراً حيث شاع الخبر أنّ الملك المعز صاحب مصر سيتزوج بابنة صاحب الموصل فعظم ذلك على زوجته شجرة الدر وعزمت على الفتك به واتفقت مع جماعة من الخدم ووعدتهم بأموال عظيمة فركب المعز للعب الكرة وجاء منهكا فدخل الحمام ليغتسل فلما صار عريانا رمته الخدم إلى الأرض وخنقوه ليلا ولم يدر به أحد فأصبح الناس من الأمراء والكبراء على عادتهم للخدمة فإذا هو ميت[٣] . ثم سلطنوا ابنه الملك المنصور على وقتل مماليك المعز شجرة الدر قتلة شنيعة جزاء لجريمتها ولم يستقر الملك المنصور على فى الحكم طويلا حيث اجتمع الأمراء

---

(١) انظر بن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ٥ ص ٢٦٨ . دار الآفاق الجديدة بيروت .

(٢) الملك الأشرف : مظفر الدين موسى بن الملك المسعود صلاح الدين يوسف الملقب باستر بن عبد الملك الكامل بن العادل بن أيوب عقد الجمان جـ ١ ص ٣٥ .

(٣) انظر بن العماد الحنبلى " شذرات الذهب " جـ ٥ ص ٢٦٨ بيروت .

وأعيان

والكبراء وعيان المعسكر على أنه لا غنى للمسلمين عن ملك يقوم بحماية رايـــة الدين خاصة عندما تيقنوا من قصد التتار الديار المصرية وأجمعوا على إقامـــة الأمير سيف الدين قطز المغربى[1] سلطانا وهزم قطز التتار فى (عين جالوت) ولكنه قتل أثناء عودته وانتقل الحكم إلى الملك الظاهر بيبرس الذى يعتبر المؤســـس الحقيقى لدولة المماليك البحرية . ولقد استمرت الدولة المملوكية فى حكم مصر فترة تقرب من ثلاثة قرون بداية من سقوط الدولة الأيوبية إلى قدوم العثمانيـــين إلى مصر ١٥١٧ م وفى الحقيقة أن قيام دولة المماليك قد استغرق ما يزيد على عشرة أعوام كانت المحصلة النهائية لمجموعة من الأحداث اتخذ قسم منها شكـــل

---

(١) قطز المغربى هو سيف الدين قطز عبد الله التركى أخص المماليك الملك المعز أيبك التركمانى أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب العينى عقد الجمان جـ ١ ص ٢٥٥ وقال العـدل أمين محمد بن ابراهـــيم ابن أبى بكر بن عبد العزيز أبو الفوارس الجذرى حكى لى والدى عـــن بدء شأن الملك المظفر قطز رحمه الله كان فى رق العريم ، أو قـــال ابن الزعيم بدمشق القصـاعين والصحيح أنه بن الزعيم اتفق أن استاذه غضب عليه بشئ أحدث منه فلطمه على وجهه ولعنه وأبيه وجده . ثـــم انه جلس يبكى ويشحب وزاد فى بكائه عن حد القياس فقال له الحجـــاج على الفراش وكان الحجاج على فى بيت بن الزعيم هذا البكاء كله مـــن ضربة أو ضربتين فقال والله ما أبكى للضرب ولكن لسب أبى وجدى ؟ وهم والله خير من أبيه وجده فقال له الفراســـن ومن أبوك وجدك ؟ فما كان الا كافرين فقال له لا والله بل أنا مسلم بن مسلم الى عشرة جدود وأنـــا محمود بن محدود بن أخت خوازم شاه السلجوكى ولا بد أن أملك مصـــر وأكـــثر التتار انظر كنز الدر جـ ٨ ص ٤٠ : ٤٩ - القاهرة ١٩٨٠ .

صراع بين الرجال فى الدولة الأيوبية من ناحية ورجال دولة المماليك من ناحية ثانية واتخذ قسم ثانى منها فى شكل صراع بين الجبهة الإسلامية ممثلة فى المماليك والمغول والغزاة[١] . وقد عرفت مصر فى حكم دولة المماليك عصرين أو دولتين الأولى دولة المماليك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٣ هـ) (١٢٥٠ - ١٣٨٢ م) وترجع تسميتهم نسبة إلى غالبية سلاطينها من المماليك الذين اشتراهم الأيوبيون وأسكنوهم فى جزيرة الروضة بالمنيل أو ماكان يسمى البحر أيضا . حيث قضى هؤلاء المماليك على دولة الأيوبين وتولوا الحكم بعدهم فنسبوا إلى هذه البحرية التى كان الملك الصالح الأيوبى قد بناها[٢] .

الثانية دولة المماليك البرجية (٧٨٤/٩٢٣ هـ) (١٣٨٢/١٥١٧ م) وتسميتهم نسبه لأن غالبية سلاطينهم من المماليك الذين كانوا يسكنون بروج القلعة على جبل المقطم حيث يعتبر السلطان قلاوون البحرى أول من استكثر هذا النوع من المماليك[٣] .

خامسا : العوامل التى ساعدت على نشوء دولة المماليك :

فى الواقع أن هناك عوامل داخلية وخارجية ساعدت على نشوء وصمود الدولة المملوكية فى مواجهة الأخطار فكانت تلك العوامل بمثابة التربة الصالحة

---

(١) انظر د . / حامد غنيم أبو سعيد " الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية جـ٣ ص ٦٠ .

(٢) انظر د . / سهام مصطفى أبو زيد (الحسبه فى مصر الاسلامية من الفتح الغربى الى نهاية العصر المملوكى) ص ٩٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) انظر د . / عبد المنعم ماجد (طومان باى آخر سلاطين المماليك) ص ٢٧ مكتبة الانجلو المصرية ط ١٩٧٨ .

لوجود ذلك العنصر المملوكى . فقامت الدولة المملوكية وسنذكر بشيئ من الإيجاز بعض العوامل الداخلية والخارجية التى ساعدت على نشوء الدولة المملوكية .

أولا : العوامل الداخلية :

١ - انقسام الدولة الأيوبية على نفسها عقب وفاة صلاح الدين الأيوبى ٥٨٩هـ ١١٩٣ م وإحلال الصراعات محل الوئام والوحدة[١] . وكانت الفرصة المواتية أمام الدولة الأيوبية كى تجدد شبابها هى الفترة التى أعقبت الإنتصار على الحملة الصليبية السابعة ، غير أن توارن شاه لم يكن بالرجل الذى تساعده مواهبه على انتشال الدولة من محنتها ووضعها على الطريق الصحيح ، وكانت تصرفات هذا السلطان فى الأيام القليلة التى أعقبت الإنتصار على الصليبيين تؤكد أن النظام الأيوبى فى مصر قد قرر أن يعيش محنة السقوط والاختفاء[٢] .

٢ - كفاءة وقدرة المماليك الحربية أكسبت المماليك احتراماً وتقديراً بالغاً من سلاطين الدولة الأيوبية فلا يخفى علينا ما كان يكنه الملك الصالح نجم الدين أيوب لمماليكه من التقدير والاحترام حتى وصلوا إلى مناصب كبيرة فى الدولة الأيوبية : أمثال فارس الدين أقطاى ، بيبرس وقطز

وهناك عوامل داخلية كثيرة وقلاوون

(١) للمزيد عن الانقسامات التى دارت مؤخرا فى البيت الأيوبى انظر د / محمد كمال عز الدين (التاريخ والمنهج التاريخى) لابن حجر العسقلانى ص ٤٩ . وانظر د / أحمد شلبى موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٢٠٢ - مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٠ .

(٢) انظر د / حامد غنيم أبو سعيد (الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٢٧٤ - دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٤ .

ثانيا : العوامل الخارجية :

١ - إن المماليك كانوا بمثابة الدماء الجديدة التى كانت تطلبها حركة الكفاح ضد الصليبيين فى هذه المرحلة من كفاحها فقد شاءت الأقدار أن يمر العالم بمحن كثيرة وابتلاءات عظيمة . وقد جاء العدوان الصليبى على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م فرصة لإبراز أهمية فرسان المماليك فى الدفاع عن العالم الإسلامى فقد كان للخطة التى وضعها بيبرس البندقدارى ونفذها فرسان المماليك فى شوارع المنصورة(١) - الأثر البالغ فى هزيمة جيش الصليبيين واستطاع هؤلاء بمساعدة المتطوعين المصريين القضاء تماما على الجيش الصليبى وأسر لويس نفسه(٢) وكان انتصار المصريين على الصليبيين بين المنصورة وفراسكور بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك وإن كان بعض المؤرخين يعتبر أن الدولة الوليدة مرت بفترة تجربة استمرت عشر سنوات بين معركة المنصورة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م وبين تولية سيف الدين قطز سلطانا على مصر وهو دور القوى الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامى فللمرة الأولى فى تاريخ المسلمين يجدون أنفسهم بلا خلافة بعد مقتل المعتصم بالله

---

(١) عن تفاصيل المعركة انظر / محمد مصطفى زيادة حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ص ١٤٥ : ٢٠١ القاهرة ١٩٦١ .

(٢) انظر د / قاسم عبده (دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى عصر سلاطين المماليك ص ٨ - دار المعارف ١٩٨٣ .

العباسى فى بغداد ٦٥٦ هـ وانجلى هذا الحدث الذى زلزل أركان العالم الإسلامى[١] وكان على دولة المماليك الناشئة أن تتصدى للخطر التتارى وهو ما قامت به دولة المماليك على أيدى سلطانها سيف الدين قطز الذى أذاق التتار مرارة الهزيمة بعين جالوت ومن بعده واصل الملك الظاهر بيبرس وسلاطين الدولة المملوكية الجهاد ضد الصليبين والتتار مما أكسب المماليك صفة شرعية فى الحكم هذا إلى جانب إحياء الخلافة الإسلامية فى عهد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى .

---

(١) انظر د . / قاسم عبده (دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى عصر سلاطين المماليك ص ٨ ـ دار المعارف ط ١٩٨٣ .

الفصل الثانى

الحالة السياسية والحياة الاجتماعية

فى العصر المملوكى

الفصل الثانـــى

الحالة السياسية والحياة الإجتماعية فى العصر المملوكى

أولاً : الحالة السياسية فى العصر المملوكى :

للحديث عن الحالة السياسية فى العصر المملوكى لا بد أن نشير إلـــى أن الحالة السياسية فى ذلك العصر لم تكن على وتيرة واحدة .

حالة التفكك والتمـــزق :

اتصفت الحقبة السياسية الأولى بالتفكك والصراع على السلطة . ففى نهاية عصر الدولة الأيوبية وبالتحديد بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى ٥٨٩هـ/١١٩٣م سادت الفتن وانقسم المسلمون فى كل بقاع الأرض إلى دويلات وحوزات ملـــوك ينظر بعضهم إلى بعض نظرة العدو المفترس لا نظرة المؤمن الموالى ونظـــر الملوك إلى رعاياهم نظرة المتسلطين المسيطرين يسومونهم الخسف والهـــوان(١). وبينما المسلمون على ذلك الحال الذى يرثى له وذلك الوضع الذى هم أقـــرب فيه عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثوبان مولى رسول الله قـــال : قال صلى الله عليه وسلم " يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تتداعى الأكلة على قصعتها . فقال قائل أمن قلة نحن يومئـــذ؟ ، قال أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثـــاء كغثاء السيل ولينزعن الله المهابة من صدور عدوكم ويجعل فى قلوبكم الوهـــن . قال قائل يا رسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيـــا وكراهية الموت "(٢) ويصف ابن الأثير الأخطار التى حلت بالعالم الإسلامى فـــى ذلك الوقت فيقول لقد ابتلى الإسلام والمسلمون فى هذه الفترة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم . منها هؤلاء التتار فمنهم من أقبلوا من الشرق ففعلـــوا

---

(١) انظر/ أبو زهرة " الامام ابن تيميه حياته وآراءه الفقهية ص ١٠٦ دار الفكر العربى .

(٢) مسند الامام / أحمد بن حنبل جـ ٥ ص ٢٧٨ .

الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها . ومنها خروج الفرنجة-لعنهم الله-وقصدهم ديار مصر أو غيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره إياها ومنها أن السيف بينهم مسلول والفتنة قائمة[١] . ويتضح لنا من ذلك الوصف أن المسلمين لم تواجههم أخطار خارجية من العدو الصليبي الماكر والتتارى الغاشم فقط وإنما واجهتهم أخطار داخلية وهى الفتنة والصراع على السلطة وتدلنا تلك الواقعة على ماكان عليه حال حكام المسلمين من تنافس على السلطة فقد علم الملك المظفر قطز بمسير نجدة التتار إلى الناصر . فخشى الملك المظفر قطز من استفحال الأمر فبعث رسله إلى الملك الناصر صاحب الشام يتودد فيها إليه ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه فى الملك ولا يقاومه وأضاف أن المظفر ما هو إلا نائب للملك الناصر فى مصر وأنه متى قدم الناصر إلى قطز أقعده قطز على كرسى السلطنة وكتب له فى رسالته :

" إن اخترتنى حدثتك وإن أخذتنى قد متومن معى من العسكر نجدة لك على القادم عليك فإن كنت لا تأمن حضورى سيرت لك العسكر فى صحبة من تختار "[٢]

فلولا من الله على المسلمين بقائد عظيم هو الملك المظفر قطز لكانت تلك طامة كبرى حيث أن الملك الناصر استنجد بالتتار وأبدى التعاون معهم ضد سلطان مصر من أجل السلطنة ولكن القائد المسلم سيف الدين قطز استطاع أن يوحد صفوف المسلمين فى مواجهة الخطر الزاحف .

---

(١) انظر ابن الأثير " الكامل فى التاريخ جـ ٩ ص ٣٣٠ - دار الفكر بيروت .

(٢) انظر د / فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الاولى ص ٣٧ - دار المعارف .

وفى أوائل ٦٥٩ هـ تعرضت الجبهة الإسلامية إلى تمزق فى ثلاث اتجاهات إتجاه فى القاهرة، وآخر فى دمشق، وثالث فى حلب . وهذا انقسام خطير لو قدر الله أن يستمر لضاعت الجبهة الإسلامية بين عدويها المتربصين لها " المغول والصليبيين " وزاد من خطورة الأمر سقوط الخلافة العباسية .

سقوط الخلافة العباسية :

لأول مرة فى تاريخ المسلمين يجدون أنفسهم بدون خلافة بعد مقتل الخليفة المستعصم بالله العباسى فى بغداد سنة ٦٥٦هـ وسقوط بغداد فى أيدى التتار مما أشاع الرعب فى قلوب المسلمين فى كل أنحاء الممالك الإسلامية .

ثانيا : الحالة السياسية بعد عودة الخلافة العباسية :

تغيرت الحالة السياسية فى العصر المملوكى بعد إحياء الخلافة العباسية فى السابع عشر من ربيع الآخر ٦٦٦ هـ على أيدى بيبرس على أنه لم يكن أول من فكر فى إحياء الخلافة بل سبقه إلى التفكير فى ذلك الملك الناصر يوسف صاحب دمشق الذى ما كاد يعلم من الأمير عبيس بن مهنا أن أميرا عباسيا[1] قدم إلى دمشق وحتى أرسل يستدعيه إليه غير أنه فوجئ بقدوم التتار فعاد الأمير ثانية إلى عبيس بن مهنا وعندما قدم الملك المظفر قطز إلى دمشق على

---

(١) هذا الامير هو أبو العباس أحمد بن أبى على الحسن القبى بن على ابن أبى بكر بن الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله وكان قد اختفى أثناء هجوم التتار على بغداد ثم تمكن من الفرار ثم قام عند حسين بن فلاح أمير بنى خفاجة ثم ذهب الى دمشق وقام عند الامير عبيس بن مهنا - (السيوطى - تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ : ٣١٨ .

أثر انتصاره على التتار فى موقعة(عين جالوت). أخبره الأمير عبيس بن مهنا بمقدم ذلك الأمير العباسى . فقال له إذا رجعنا إلى مصر أرسله إلينا لنعينه إن شاء الله ونستفيد من ذلك أن قطز كان يرمى إلى تولية هذا الأمير خليفة للمسلمين غير أنه لم يعمر طويلا حتى ينفذ هذه الفكرة .(١)

ولقد استفاد الإسلام بلا شك من إقامة خليفة يكون عنوانا للوحدة الإسلامية ورمزاً لجماعتها الموحدة . وإن كانت الخلافة قد عادت شكلاً لا قوة لها . فقد حاول الخليفة المستنصر بالله أن يعيد لها معناها وإن شكليا فإن بقاء الشكل قد يكون إيذاناً بعودتها الحقيقية أو بوجوب عودتها وقتا من الأوقات فكانت الخلافة هيبة فى قلوب الأعداء وشهدت تلك الفترة استقرارا نسبيا .

ثالثا : الحياة الإجتماعية فى العصر المملوكى :

عاشت مصر عيشة ناعمة أيام الفاطميين وكانت الحياة الإجتماعية أقرب إلى الترف والبذخ . منها إلى حياة الجهاد والكفاح منها أقرب إلى الدعة والمدنية منها إلى الحرب وحياة الجندية فلو جاء الأيوبيون وقضوا عهدهم كله فى الحروب الصليبية من أوله إلى آخره ، إذ أن دولة الأيوبين ظهرت على مسرح التاريخ وليدة الشعور بالخطر الصليبى . وكانت حياتهم عسكرية صرفة . وتتغير الحياة فى عهد المماليك فلا هى عسكرية صرفة ولا مدنية خالصة . فبينما نرى أن هؤلاء المماليك يصدون غارات الصليبيين والمغول ،

---

(١) انظر / د محمد جمال الدين سرور " دولة الظاهر بيبرس فى مصر ص ٥٢ - دار الفكر العربى ١٩٦٠ .

ويقومون بفتوحات عديدة نراهم تنعموا بمظاهر الأبهة . واختلف العلماء في تصنيف الفئات التي يتكون منها المجتمع زمن المماليك فمنهم من قسم الفئات الإجتماعية الأساسية في العصر المملوكي إلى خمس فئات . أولى هذه الفئات المماليك الذين كانوا يقفون على رأس السلم الإجتماعي وسمتهم المصادر أرباب السيوف ، ثم فئة كبار موظفي الدولة من غير العسكريين وسمتهم المصادر أرباب الأقلام ويشكل العلماء الفئة الثالثة الإجتماعية في العصر المملوكي الأول وتأتي التجارة في المرتبة الرابعة ، ثم سائر الناس وهم العامة .

أما ابن خلدون فيقسم المجتمع إلى قسمين؛ سلطان ورعية[1] وسنتعرض للحديث عن أهم الفئات الإجتماعية :-

١ - السلطـــــان :

متى تمت السلطة لأحد الأمراء وصار سلطانا على البلاد أصبح بيده الأمر والنهي والحل والعقد وصار مصدر السلطات وولي الأمر الشرعي وهو الذي يعين ويعزل ويرقي ويفرق الإقطاع ويقرر الحرب ويفرض الضرائب وينفق المال على مرافق البلاد ويشتري المماليك للدولة وينفق عليهم ويربيهم ويعدهم للحراسة والقتال وإلى غير ذلك من المهام فهو محور الدولة وعليه مدارها[2] وتشبه سلطات السلطان في الدولة المملوكية سلطات الخليفة في العصور السابقة . وصفوة القول كله أن السلطان هو كل شيء في تنظيم دولة المماليك[3] .

---

(١) انظر / مقدمة ابن خلدون ص ١٦٨ - دار الفكر .

(٢) انظر د / عبد المنعم ماجد " دولة سلاطين المماليك ورسومهم ودراسة شاملة للنظم السياسية . مكتبة الانجلو المصرية .

(٣) انظر /د . محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك جـ ٤ ص ٢٨٩ القاهرة ١٩٦٠ .

حفل توليتـــــه :

بعد استقرار الرأى على أن يتولى أمير معين أمر السلطنة يقام له حفـــل تولية ومبايعة يجتمع فيه الخليفة وقضاة الشرع الأربعة وسائر الأمراء ويكتب تقليد السلطان للسلطنة ويتلى فى الحفل على لسان الخليفة العباسى يوليه فيه شئون المسلمين . ويتقدم الخليفة نحو السلطان فيبايعه ويعهد إليه ثم يليه قضـــاة الشرع فالأمـــراء ويلبسونه بعد ذلك شعار السلطنة وهو عمامة سوداء لهـــا عذبة مذهبة وجبة ســوداء وسيف ثمين ذو حمائل ويجلسونه فى الرست (١) وكانت القلعة محل إقامة السلطان وبها دواوينه ، وقصره وما يتبعه من أبنية وإدارات ومن أهم الدواوين . ديوان الأحباس وتشبه وزارة الأوقاف وديوان النـــزر ويشبه وزارة المالية . وديوان الخاص وديوان الإنشاء ، الغلال وديـــوان المرتجعات (التركات) (٢)

حفل الإستقبـــال :

عرف سلاطين المماليك الأعراف الدبلوماسية السائدة فى عصرنا من إقامـــة مراسم الإستقبال فى المناسبات عند حفاوتهم بضيف كبير ، وكانت تراعى فيهـــا تقاليد وأوضاع مقررة ويرسل السلطان عادة إلى القادم من يلقاه فى طريقه ويهدى له منزلا مناسباً لإقامته ويعين له من يقوم بحراسته وخدمته .

---

(١) الرست : وهو العرش فى أيامنا هذه ورست السلطنه هو كرسى العـــرش والرست أيضا بمعنى الديوان (بيبرس المذهور والتحفة المملوكيـــة) ص ٢٧ (الدار المصرية اللبنانية ط ١ القاهرة .

(٢) انظر شحاته عيسى ابراهيم " القاهرة تاريخها ونشأتها " ص ١٥٧ - دار الهـــلال .

الجلوس إلى القضـــــاء :

وأراد سلاطين المماليك أن يتشبهوا بالسلف فى تفقد أحوال الرعيـــــة والنظر فى المظالم فجلسوا فى مجلس القضاء للفصل فى الشكايات والخصومـات واصطحبوا معهم قضاة الشرع . وكان جلوس سلاطين المماليك فى مجلس القضاء من العادات الحميدة ولم تطرد هذه العادة فيها فمنهم من هجرها جملـــة ومنهم من لم يواظب على هذه العادة باستمرار . ومن الذين جلسوا للقضـــاء نجد الظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون ، والناصر بن قلاوون وتقـــدم الشكاوى والمظالم على اختلاف أنواعها إلى السلطان حين ذلك ليستشـــير فيها قضاة الشرع فيحكم بما يراه ولا يخرج عن رأيهم (١)

٢ - الـــــــــوزراء :

الوزارة كلمة فارسية الأصل فهى ليست من مستحدثات الإسلام (٢) فقـــد ورد ذكرها فى القرآن الكريم على لسان موسى إذ يقول " وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣) " .

---

(١) انظر المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٩١ : ٢٩٣

(٢) انظر د / سلمان محمد الطماوى " نظم الحكم والادارة " ص ٤٦٧ .

(٣) سوره طـــه آية ٢٩ : ٣١ .

واتخذ بيبرس وزيرا له[١] . كان يستشيره فى أمور الدولة كما كان وسيطا بينه وبين الرعية وكان عليه تنفيذ أوامر السلطان . وإعطاء النصح والإرشاد له إذا ما استأنس برأيه فى أمر من أمور الدولة غير أنه لم يكن يتمتع بكامل سلطته لقيام النائب مقام السلطان أثناء غيابه[٢] . وظلت الوزارة قائمة فى ذلك العصر حتى ولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر فلم يتخذ له وزيرا اعتمد على نواب له فى إدارة شئون البلاد وكانت رتبته تلى رتبة الوزراء يعاونه فى عمله كثير من الموظفين يعرفون بالمستوفين ولهؤلاء رئيس يسمى (مئوف الصحن) وكانت مهمته اعداد المراسم الخاصة بتنظيم شئون الدولة[٣] .

---

١ - الوزير : هو المتحدث الملك فى أمر مملكته واختلف اشتقاقه فقيل مشتق والوز بفتح الواو والوزين وهو الملجأ . ومنها قوله تعالى " كلا لا وزر " سمى بذلك لأن الرعية يلجأون اليه فى حوائجهم وقيل مشتق من الأوزار وهى الأمتعة ، ومنها قوله تعالى " ولكن حملنا أوزارا من زينة القوم " سمى بذلك لأنه متقلد بخزائن الملك وأمتعته وقيل مشتق من الوزر بكسر الواو واسكان الزين وهو الثقل ومنه قوله تعالى " حتى تضع الحرب أوزارها " وسمى بذلك لأنه يتحمل أثقال الملك وقيل مشتق من الأزر وهو الظهر وسمى بذلك لأن الملك يقوى لوزيره لقوة البدن بالظهر (القلقشندى " صبح الأعشى " ج ٥ ص ٤٤٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ .

٢ - انظر د . محمد جمال الدين سرور " دولة الظاهر بيبرس " ص ١٢٣ .

٣ - انظر المقريزى " للخطط " ج ٢ ص ٣٣٤ دار الفكر المصرية ١٩٦٠ .

ويدل ذلك على أن سلاطين المماليك لم يتخذوا لهم وزراء يعاونوهم فى إدارة شئون الدولة كما كانت الحال فى عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية فأضعفوا أولاً من نفوذهم ثم استبدلوا بهم كبار الموظفين فأصبح كل من ناظر الدولة منصباً مناظر الخاص حتى يقوم بمهام الوزارة ولعلهم عهدوا إلى ذلك خشية أن يزداد نفوذ الوزراء فيعملون على تقوية سلطنتهم وخلعهم من عروشهم كما كانت الحال فى أواخر الدولتين العباسية والفاطمية .

٣ - الأمراء وكبار موظفى الدولة :

الأمراء هم قادة الجند وهم الفئة التالية للسلطان فى الحكم والمنفذة لأمور الدولة ويغلب أن يكون الأمير مملوكى الأصل مربى فى طباق القلعة تربية عسكرية فصار جندياً ثم رفعت به مهارته وجده إلى صفوف الإمارة ويتولى الأمراء أهم مناصب الدولة ولا سيما العسكرية منها وهم فى الغالب أربع طبقات :-

١ - أمراء المائة :

المقدمون وتلك أرفع المراتب ويختار من هذا الصنف كبار الموظفين مثل نائب السلطنة الأتابكى[1] : وهو أول من أسس الترك المماليك هذه السنة الملك المعز حيث رتب مملوكه الأمير سيف الدين قطز المعزى فى نيابة سلطانه وكانت سنة حسنة[2] وكانت نيابة السلطنة كما يستدل من منطوقها

---

(١) الأتابك : هو القائد العام لجيوش الدولة وأتابك لفظ تركى مركب من كلمة " أطا " بمعنى أب وكلمة بك بمعنى السيد أو الأمير فيكون الأتابك هو السيد الأب أو الأمير الأب أى أب الأمراء .

(٢) انظر بيبرس المنصورى " التحفة المملوكية " ص ٣٣ - تحقيق د / عبد الحميد صالح حمدان - القاهرة ١٩٨٧ .

أكبر الوظائف فى الدولة المملوكيـــة ويقوم متوليها مقام السلطنـــة فى غيبتـــه (١) .

٢ - أمراء الأربعـين :

وهم أقل مرتبـــة .

٣ - أمراء العشـــرة :

٤ - أمراء الخمســـة :

وأهم وظائفهم نائب الإقليم أو قلعة دمشـق والإسكندرية وحلب أو أميـر مجلس ويشرف على الأطباء ومن آل إليهم، وأمير سلاح وهو رئيس رجـــال السلاح من مماليك السلطان ويوكل إليه الإشراف على السلاح وإعـــداده وأمير أخور وينظر فى الإسطبلات السلطانية وما تحتاج إليه من طعـــام وشراب وخدم وغير ذلك (والدوادار) يبلغ رسائل السلطان وتقدم إليـــه المظالم والبريد مع كاتب السـر والجاشنكير (٢) يتولى الإشراف علـــى

---

(١) الخطيب الجوهرى " نزهة النفوس والابدان فى تواريخ الزمان " هامش ص ٤٧ .

(٢) الجاشنكير : هو الذى يتصدى لزوم المأكول والمشروب قبل السلطـان أو الامير خوفا من أن يدس فيه سـم أو نحوه وهو مركب من لفظيـــة فارسيته : أحدهما جاشنا بجيم فى أوله قريبة من الشين معنـــاه الذوق ولذلك يقولون فى الذى يذوق الطعام أو الشراب الشيشـــى والثانى كير وهو بمعنى التعاطر لذلك فيكون المعنى الذى يروق . انظر القلقشـــندى " صبح الأعشـى " جـ ٥ ص ٤٦ .

الخزائن السلطانية والأطعمة والموائد ووالى القاهرة وهو من الوظائف الهامة التى ظهرت فى هذا العصر وهى تقابل ما يعرف بالعصر الإسلامى الأول بالشرطة ومهمة صاحبها حفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التى تكفل سلامة الجمهور (١) .

الجيـــــــش :

اهتم أرباب السيوف اهتماما بالغا بالجيش ويعد بيبرس أول من نظم جيوش المماليك تنظيما تاما ولا عجب . فقد كان قائداً محنكاً ظهرت كفاءته فى موقعة المنصورة التى دارت بينه وبين الصليبين وكان جيش المماليك يتألف من ثلاث طوائف :-

جنود نظامية تنفق عليها الدولة ومماليك السلطان وهم عصب الجيش وقوته العاملة (٢) وكانوا يجلبون من الخارج رقيقا ويربون تربية عسكرية فى أبراج القلعة . واهتم السلاطين بهم حتى أصبحوا ذا ثروة كبيرة ونفوذ عظيم . أما الطائفة الثالثة فهم مماليك الأمراء وكانوا يحرسونهم وقد حافظ المماليك على صيغتهم الحربية حتى بعد ضغط نفوذهم وقد كان جيش المماليك من أقوى الجيوش عددا وقوة . بحيث تغلب على أكبر جيوش الأرض كالصليبين والمغول .

---

(١) انظر محمد جمال الدين سرور " دولة الظاهر بيبرس ص ١٣٦ دار الفكر العربى ١٩٦٠ .

(٢) انظر / محمود رزق سليم " عصر سلاطين المماليك " جـ ٤ ص ٣٠٢ طبعة النهضة ١٩٨٢ .

٤ - العلمـــــــــاء :

عرفت بطبقة المعلمين أو أهل العمامة وكانت تشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب وامتازت هذه الفئة بميزات معينة فكان بعض السلاطين يقومون للعلماء ويجلسونهم إلى جوارهم إلى جانب إغراق المنـــح والمرتبات الشهرية على أرباب الوظائف المعممين . واعتز المعممون بمكانتهـــم في عصر سلاطين المماليك فلجأوا أحيانا إلى معارضة السلاطين في الحـــق وكان لرأيهم قوة حقيقية يخضع لها السلطان .

٥ - أهل الذمـــــــة :

حرص السلاطين والأمراء على التزامهم العدالة تجاه غير المسلمين عمـــلا بتعاليم الدين الإسلامي وفي الحقيقة أن أبناء الأقليات الدينية سواء من اليهود أو المسيحين قد مارسوا كل المهن والحرف التي مارسها المسلمون ومن ناحيـة أخرى فإن الوثائق تشير بوضوح إلى أنّ اليهود والنصارى قد تملكوا العقارات في شتى أنحاء البلاد إمّا عن طريق البيع والشراء وإمّا عن طريق الوراثة . كمـا تدل الوثائق على أنّ اليهود والنصارى كانوا يتعاملون مع المسلمين في عمليات البيع والشراء في حرية تامة في ظل القـرائن الحاكمة آنذاك[1] . ورغم ذلك اشتهر أهل الذمة في ذلك العصر بميولهم وتواطئهم مع التتار ضد المسلمين مما جعل الملك الظاهر بيبرس والذي اشتهر بالعدل والأخلاق الحميدة أن يعاملهـــم

---

١ - انظر د . / علي ابراهيم حسن " تاريخ المماليك البحرية " ص ٩٤٩ - مكتبـــة النهضة ١٩٨٠ .

كانوا

معاملة تنطوى على العطف والرعاية بسبب ما كان يقومون به من المناوشات والفتن فقد حدث أن كثر الحريق بالقاهرة أثناء اشتغال بيبرس بفتح أرسوف سنة ٦٦٣ هـ وأشيع أن النصارى هم الذين أشعلوا هذه النيران فلما عاد بيبرس إلى مصر أنكر عليهم هذه الأمور التى تفسخ عهدهم ثم أمر بإحراقهم فشفع فيهم الأمير حارس الدين أقطاى أتابك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيمة ما أحرق وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار فى كل عام فأطلق صراحهم وتولى بطريقهم دفع الأموال المطلوبة والتعهد بألا يعودوا إلى فعل شيء من المنكرات وألا يخرجوا عما هو مقدر[1] لأهل الذمة وكان الناصر أكثر عطفا على النصارى ممن سبقه من سلاطين المماليك حتى أنه أمر بإعادة كل من طرد منهم إلى وظيفته ومنع عنهم الأذى فتمتعوا فى عهده بالهدوء والطمأنينة وراحة البال اللهم إلا إذا استثنينا بعض حوادث عارضة كانت تؤدى إلى تغير السلطان والعامة مما جعل الملك الناصر محمد بن قلاوون يعترض على النصارى أن تميز عمائمهم باللون الأزرق واليهود بالعمائم الصفيرة. تميزت كل ملة بعلامة معينة وقد كان مرسوم الملك الناصر بتمييز عمائم أهل الذمة له ما يبرره فى ذلك الوقت فقد حدث أن بذل أهل الذمة مالا لتكون عمائمهم لون عمائم المسلمين. فعرض ذلك الأمر على مجلس العلماء فسكت أهل المجلس وقام الشيخ ابن تيمية وتكلم كلاما عظيما[2] ورفض أن تكون عمائم أهل الذمة بلون عمائم المسلمين وذلك يجعلنا نتساءل لماذا شدد ابن تيمية فى أن يكون

---

(١) انظر / د. جمال الدين سرور "دولة الظاهر بيبرس" ص ١٥٣ - دار الفكر العربى ١٩٦٠.

(٢) انظر السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٧٩ مطبعة الموسوعات.

لأهل الذمة عمائم مسبغة على غير لون عمائم المسلمين مع أنه المسلم الصادق الذى يعرف أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أوجب الرفق بهم كما أنّ ابن تيمية لما استنفذ الأسرى من التتار لم يفرق بين أسرى الذميين ؟ ولعل ماحمل أبن تيمية على التشدد للتميز باللباس هو ما كان يخشاه من عيون النصارى الباقين من الحملة الصليبية ، وأن يكون بعض الذميين عيونا لهم (١) . فشدد فى أن يتميزوا تميزاً مبيناً ، لكى لا يبث من يميلوا إلى الصليبين سمومه فى الجماعة الإسلامية وخلاصة القول أنّ الموقف الرسمى لسلاطين المماليك تجاه رعاياهم لغير المسلمين من خلال الوثائق الكثيرة التى خلفها لنا ذلك العصر (٢) فقد صدرت المراسيم من السلاطين وكبار الأمراء طوال عصر المماليك التى تحفظ لأهل الذمة حقوقهم ومصالحهم .

٧ - المصريون :

كان المماليك يعيشون عيشة الترف بينما المصريون على العكس من ذلك لا عمل لهم إلا زراعة الأرض ودفع الضرائب وكانوا يقومون فوق ذلك بصنع الملابس المملوكية الفاخرة وبناء عمائرهم ، غير أنّهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من بعض المناصب الحكومية فكان يسند إليهم الوظائف الدينية والقضاء (٣) وقد تأرجح وضع المصريين بين اليسر والرخاء أحيانا وبين الفقر أحيانا أخرى .

---

(١) انظر / د . محمد محمد أبو زهرة "ابن تيمية" حياته وأمراؤه الفقهية" ص ٦٣ دار الفكر العربى .

(٢) للاطلاع على تلك الوثائق راجع قاسم عبده "أهل الذمة فى مصر" ص ٤٤ .

(٣) انظر د . محمد جمال الدين سرور "دولة الظاهر بيبرس" ص ١٠٣ - دار الفكر العربى ١٩٦٠ .

٨ - الوافـــــــدية :

كذلك كان بالقاهرة جالية من التتار قدموا إلى مصر فى أوائل عهد الملك الظاهر بيبرس واتخذوا الإسلام دينا لهم وأقاموا فى دور بنيت لهم فـــــى أراضى اللـوق[1] . وكانوا موضع عناية السلطان وكان من أثر هذه المعاملـــــة الحسنة التى عامل بها بيبرس هؤلاء التتار أن كثر عدد الوافدين منهـــــم وتزايدت بذلك العمائر فى اللوق والجهات التى حوله . وهكذا كان لكـــل فئة أو طبقة اجتماعية دور على مسرح الأحداث فى العصر المملوكى ،

---

(١) اللوق : كانت تطلق فى عهدهم على الجهات التى تعرف اليـــوم بباب اللوق (المرجع السابق) ص ١٥٣ .

الفصل الثالث

الحركة العلمية فى العصر المملوكى

" الفصل الثالث "

" الحركة العلمية فى العصر المملوكـــــى "

قامت فى عهد المماليك حركة علمية لا بأس بها فكان ذلك العصر زاخرا بالعلم وكثر فيه العلم المدون كثرة سهلت الطلب والتحصيل وبلا حطاطـــة فقد كانت العلوم كثيرة جدا وتحصيلها عظيم وعكوف الناس عليها كان كثـــيرا (١).

ففى هذه الفترة من الزمن - أى بعد سقوط بغداد كانت مصر محكومة لدولـــتى المماليك البحرية والبرجية ويحدثنا التاريخ عما كان عليه هؤلاء السلاطين مـــن حب للعلم وتقدير للعلماء ومن أجل ذلك شيدوا الجامعات والمدارس الحديثة واستقدموا فى هذه الفترة العلماء من الأقطار البعيدة وصرفوا الأمـــــوال الطائلة على تلك المؤسسات الدينية والعلمية وهاهى آثارهم الخالدة ماثلـــة البنيان ، تحدث عما كان عليه القوم من عناية بعلوم الشريعة والسنة . ولـــم يقف الأمر عند حد المعاونة بالمال أو السلطان ، بل لقد جلس السلاطـــين فى حلبة الدروس مع المتعلمين وتتلمذوا على أيدى العلماء وأئمة الحديـــث (٢) ولقد صارت مصر قبلة المسلمين فى ذلك الوقت وكان طبيعيا أن ينتقل مركـــز الثقافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة ، التى لم ترتد إليها جحافل المغول

---

(١) انظر د . / محمود دياب " محاضرات فى تاريخ الدعوة الاسلاميـــة" ص ١٦ ، اسيوط .

(٢) انظر د . / محمد محمد أبو زهرة " الحديث والمحدثون " ص ٤٣٦ ، دار الفكر العربى .

وأسرابهم[١] وذلك بعد نقل الخلافة إلى مصر فى عصر الظاهر بيبرس ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٥م ولقد كان للمماليك نظام متكامل للتعليم فقد كانت الدراسة تمر بمراحل متعددة أولها التعليم فى المكاتب وثانيها التعليم فى المدارس وقد تتطلب كل نوع من التعليم أنواعا مختلفة من المؤسسات التعليمية .

أولا : التعليم فى المكاتب :

تدور مناهج التعليم فى المكاتب حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن والحديث وآداب الدين فضلا عن مبادىء الحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر .

ويبدأ تعليم الأطفال بالكتابة فى الألواح ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الكتابة بالمداد وكانت الدراسة بالمكاتب العامة قاصرة على الأيتام فكان إذا بلغ الطفل الحلم زالت عنه صفة اليتم وصرف من المكتب ليحل محله مستحق آخر وقد عرفت مصر فى تلك الفترة نوعين من المكاتب مكاتب خاصة بأجر ومكاتب عامة تقتصر على الأيتام والفقراء وقد عرف المماليك النظم التربوية فى التعليم واهتموا بها اهتماما عظيما فأوصى المؤدب[٢] بأن يحسن معاملة الأطفال ولا يقسو

---

(١) انظر شحاتة ابراهيم عيسى " القاهرة تاريخها ونشأتها " ص ١٧١ ، دار الهلال .

(٢) المؤدب : هو الذى يقوم بتعليم الاطفال فى المكاتب ويطلق عليه احيانا اسم المعلم او الفقيه (عبد الغنى محمود ، الحركة الفكرية فى مصر ص ١٢٨ ، دار المعارف .

الأدب

عليهم ولا يضربهم ، إلا إذا أساء أحدهم للأدب أو قام بعمل خارج عن قانون الشرع وفى هذه الحالة يجب على المؤدب ألا يضرب صبيا بعصا غليظة تكسر العظم ولا رقيقة تؤلم الجسد بل تكون وسطا واشترط فى المؤدب عدة شروط منها " أن يكون صحيح العقيدة "[1] حسن السيرة ، محمود السمعة ، وقد موا للمتعلم الحوافز المادية والمعنوية المشجعة للطلاب على طلب العلم فإذا أتم الولد حفظ القرآن فى المكتب احتفل به احتفالا عظيما يسمى " بالإصرافة " فتتزين أرض المكتب وحيطانه وسقوفه بالحرير ويزين الصبى ويسير فى موكب حافل بالبهجة والسرور ، وهكذا يظهر لنا مدى اعتزاز المماليك بالقرآن الكريم وبالشريعة الإسلامية وبعد حصول الطفل على الإصرافة ، والإلمام ببعض بديهيات العلوم يصبح مهيئا لتلقى مرحلة أعلى من المكاتب .

مطلوب نبذة وتصوير لشعار ذلك

ثانيا : التعليم فى المدارس :

كانت المدارس فى العصر المملوكى بمثابة كليات عالية بلغت درجة فائقة فى التنظيم العلمى والإدارى وروعى فى تصميمها الأغراض التعليمية وعدد المذاهب ومساكن الطلبة والمعيدين وكذلك ألحقت بكل مدرسة مكتبة عظيمة . أما العلوم الأساسية التى كانت تدرس فى هذه المدارس ارتبطت

---

(١) انظر د . / على السيد على " القدس فى العصر المملوكى " ص ١٥٨ دار الفكر للدراسات والنشر .

بأصول الدين كالفقه والحديث والتفسير ، أو العلوم اللغوية كالنحو والصرف والبيان ، فضلا عن الدراسات العقلية كالفلسفة والمنطق ، أو العلوم العملية كالفلك والكيمياء والطب واهتم كذلك سلاطين المماليك بالمدرسين إذ كانت وظيفة التدريس جليلة القدر يخلع السلطان على صاحبها فى كثير من الأحيان بهدايا ويكتب له توقيع عن ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التى يدرسها المدرسون إن كانت تفسيرا أو حديثا أو غير ذلك ، ولم تقتصر مهمة المدرس على مجرد الإلقاء والتلقين والشرح بل كان عليه أن يسهل على الطلبة الفهم ويحثهم على الإشتغال بالعلم الشريف بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون ، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق وإن كانوا منتهين فلا يلقى عليهم الواجبات بل يدخل بهم فى مشكلات الفقه ويخوض بهم عبابه الزاخر "[1] ، وإذا كان المدرس هو الأستاذ الذى يقوم بتدريس مادة معينة يخصص فيها فإن المعيد كان يساعده بإعادة وإلقاء الدرس على الطلبة بشرح الصعب .

وكان المعيد يتبع استشارة أستاذه ويتبعه فى المذهب ومادة التخصص ويواظب على حضور دروسه أما بالنسبة لاختيار مواد الدراسة ارتبط بشروط إنشاء المدرسة ووقفها وكثيرا ما اعتمد هذا الإختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية حتى قيل أن ابن حجر وهو من كبار فقهاء القرن التاسع الهجرى

---

(١) انظر د / على السيد على " القدس فى العصر المملوكى " ص ١٦٩ ، دار الفكر للدراسات والنشر .

كان يجتمع حوله بضعة آلاف من المستمعين والمستميلين ، وأُلحقت بكل مدرسة مكتبة يرجع إليها المدرسون والطلبة وتعددت الأغراض فى استخدام المدارس فى غير التعليم واستخدمت مقراً للقضاة ونواب دار العدل للفصل فى القضايا وكان ذلك مع بداية الدولة المملوكية وشيد المماليك مدارس عديدة خدمت العلم والعلماء وأُنفقوا عليها الأموال بسخاء حتى كانت موضع افتخار واعتزاز المماليك إذ جمعت بين الفن المعمارى الرائع والتنظيم الحديث ونجوم لامعة فى العلم تخرج على أيديهم علماء لهم شأن عظيم ومن أشهر هذه المدارس :-

١ - **المدرسة الظاهرية القديمة :-**

وعرفت بالقديمة تمييزا لها عن المدرسة الظاهرية الجديدة فالأولى منسوبة إلى الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، بناها عام ٦٦١هـ ، ورتب لتدريس الشافعية بها تقى الدين بن رزين ، ولتدريس الحنفية محى الدين عبد الرحمن بن الكمال بن العديني ، ولتدريس الحديث الحافظ الحافظ شرف الدين الدمياطى ، ولتدريس القراءات كمال الدين القرمى ، وأُلحق بها خزانة كتب عظيمة "[1] .

---

(١) د/ عبد اللطيف حمزة (الحركة الفكرية فى مصر) ص ١٦٤ ، دار الفكر العربى ١٣٦٥ هـ .

٢ - المدرسة المنصورية :-

نسبةً إلى الملك المنصور قلاوون بناها عام ٦٧٩ هـ ورتب فيها دروسا للفقه على المذاهب الأربعة والحديث والتفسير ودروسا كذلك في الطب .

٣ - المدرسة الناصرية :-

نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون وكانت مدرسة عظيمة عين بها المدرسون للمذاهب الأربعة وألحقت بها مكتبة حافلة وتحمس لبنائها وبناء المارستان والحق أن الملك الناصر بن قلاوون كان من أعظم سلاطين المماليك شغفا بالعمارة حتى أن المؤرخين عجبوا لهذا التهافت الذى بدأ من الملك الناصر على البناء والعمارة حتى أن ابن اياس قال عنه " ولا يعلم لأحد من الملوك أثار مثله "(١) .

٤ - مدرسة السلطان حسن :-

نسبة إلى السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون وقيل عنها إنها لا يعرف منذ ميلاد الإسلام مدرسة من مدارس المسلمين تحاكى هذه المدرسة فى كبر قالبها وحسن هندامها وضخامة شكلها وقد تجاوزت العمارة فيها

---

(١) ابن اياس " بدائع الزهور فى وقائع الدهور " ١/ ١٧٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م .

ثلاث سنوات لا تتوقف يوماً واحداً وقال الدكتور كمال الدين سامح عنها إنّها من أجمل الآثار الإسلامية فى مدينة القاهرة إذ أن مبانيها تجمع بين قوة البناء وعظمته ودقة الزخارف وجمالها "[1] وقد قدر السلطان حسن للمدارس الفقهية الأربعة مدرسين ، ومراقبين وخصص لها مرتبات ، وألحقت بها مساكن للطلبة[2] .

٥ - المدرسة الظاهرية الجديدة :-

فرغ من بنائها عام ٧٨٨ هـ فأقبل الشعراء على السلطان الملك الظاهر يهنئونه بها وعين السلطان فيها مدرسين للفقه على المذاهب الأربعة والحديث والقراءات فلم يكن منهم من أحد إلا متقدما فى فنه او مجال تخصصه ، وعين بالمدرسة سراج الدين البلقينى مدرسا للتفسير وكفاها به فخرا[3] .

ثالثا : المساجد :-

تعتبر المساجد أقدم مظاهر التعليم التى وجدت فى مصر خاصة قبل ظهور المدرسة كمؤسسة تعليمية ولم يقلل ظهور المدارس وانتشارها من

---

(١) د/كمال الدين سامح " فى العمارة الاسلامية " ص ٧١ ، القاهرة .
(٢) المرجع السابق ص ٧٣ .
(٣) د./ عبد اللطيف حمزة ، " الحركة الفكرية فى مصر " ص ١٦٥ ، دار الفكر العربى ١٣٦٥ هـ .

شأن المساجد . إذ استمر المسجد هو أفضل أماكن التدريس لكثرة المنتفعين بالعلم في المساجد وعدم اختصاصها بفئة معينة دون أخرى . فقد تأثر التدريس بالمساجد بعض الشيء وواجه فترة من الركود النسبي في العصر الأيوبي نظرا لاهتمام الأيوبيين بإنشاء العديد من المدارس التي انتقلت إليها قيادة الحياة التعليمية في تلك الفترة وبالتالي تدفق عليها المدرسون والطلبة نظراً لما يصرف فيها من المرتبات النقدية والعينية بالإضافة إلى السكن المجاني في كثير من المدارس حتى جاء المماليك فأعادوا للمسجد مكانته العلمية ولم يكن ذلك يعني تقصير المماليك في توفير متطلبات الحركة التعليمية للمدارس وإنما إيمانهم بأهمية التعليم في المسجد ودوره العظيم حتى صارت في ذلك العصر المدارس نوعا من المساجد بل أنَّ المساجد التي أُقيمت أساساً للعبادة أعطى فيها بعض الدروس ورتب لها الطلبة والمدرسون كتلك التي وجدت بالجامع الخضرى والجامع الباسطي ، فأصبحت المدرسة والخانقاة[1] والمسجد الجامع مبنى واحد يقوم بهذه الأغراض مجتمعة ويتضح ذلك في معظم المنشآت في عصر المماليك . كما كان في المدرسة البارقوقية إذ أنها كانت مسجدا وجامعا وخانقاة ومدرسة[2] .

---

(١) الخانقاة : الخانقاة او الخانكاه " كلمة فارسية معلناها دار الصوفية يتعبدون فيها " انظر كمال الدين سامح " العمارة في الاسلام ص ٦٩ دار المعارف .

(٢) انظر د . / عبد الغني محمود " التعليم في مصر زمن الايوبيين والمماليك ص ١٨٧ .

مظاهر ازدهار الحركة العلمية في (العصر المملوكي) :-

١ - نبوغ علماء (العصر المملوكي) وكثرة مؤلفاتهم :-

يزدان عصر المماليك في مصر وسوريا بنخبة من الفحول والعلماء في مختلف الميادين بحيث يصعب أن ينافسهم عصر آخر[(١)]، وذكر ابن خلدون عند حضور مصر " ومازلت ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام ألف ديوانا أستوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة "[(٢)] وقيل إنه عندما توفى جلال الدين السيوطى صليت عليه صلاة الغائب بالجامع الأموى كما كانت بعض مؤلفات علماء مصر من الذين اشتغلوا بالتدريس يرسل الملوك والسلاطين من البلاد الإسلامية لطلبها[(٣)] وهى فترة من أحفل الفترات التاريخية بالعلماء وأزخرها بالمدارس[(٤)] ومما يدل على نبوغ هؤلاء العلماء ازدياد المؤلفات في هذا العصر . فقد كثرت كثرة مزهلة ونهضت نهضة بعيدة المدى . حتى أنه كان ينسب للواحد من علماء هذا العصر مئات من الكتب والرسائل فقد قيل إن مؤلفات جلال الدين السيوطى زادت على ستمائة كتاب وابن تيمية زادت مؤلفاته عن خمسمائة كتاب وابن حجر العسقلانى تجاوزت مؤلفاته نحو مائة وخمسين وخلافه كثير[(٥)] .

---

(١) انظر د . / احمد شلبى ، موسوعة التاريخ الارسلامى ٥ / ٢٧٢ مكتبة النهضة (١٩٩٠٩١م .)

(٢) انظر ابن خلدون " المقدمة ص ٥٤٧ دار المعارف .

(٣) انظر/ د . عبد الغنى محمود " التعليم فى مصر زمن الايوبيين والمماليك دار المعارف ص ٢٧٤ .

(٤) انظر/د . على السيد على " القدس فى العصر المملوكى ص ١٤٣ ، دار الفكر للدراسات والنشر .

(٥) انظر/د . محمد كامل الفقى : الادب فى العصر المملوكى ص ٥٣ : ٥٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م .

٢ - الآثار الإسلامية :-

" يعتبر عصر المماليك العصر الذهبى فى تاريخ العمارة الإسلامية فى مصر فقد زادت الرغبة فى تشييد عدد كبير من الأبنية من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبلة كما ذاع بناء المدافن الكبيرة فى عصر المماليك ، ولعل أبدعها مدفن وخانقاة برقوق ومدفن قايتباى ، ومدفن برسباى بصحراء المماليك "[1] وتلك الآثار تدل على إلازدهار العلمى لذلك العصر . وذلك يجعلنا نبحث على أهم الأسباب التى ساعدت على ازدهار ونشاط الحركة العلمية فى ذلك العصر وهى :-

١ - انتشار المكتبات :-

كانت المكتبات بمثابة مدارس للتعليم فى شتى العصور الإسلامية ومؤسسات ينفق عليها السلاطين والأمراء والأثرياء والعلماء لينتشر العلم بين الناس خصوصا فى زمن لم تكن فيه الطباعة متوفرة[2] ، فقد كانت محور النشاط التعليمى ومركزاً لتحصيل العلم بالبحث والدراسة فى الكتب نفسها والنقل مما تحويه من مادة علمية[3] سليمة .

---

(١) د . كمال الدين سامح : فى العمارة الاسلامية ص ٦٣ ، القاهرة .

(٢) انظر د . على سالم النباهين : نظام التربية الاسلامية فى عصر دولة المماليك فى مصر ص ٢٧٦ ، دار الفكر العربى .

(٣) انظر /د . على السيد "القدس فى العصر المملوكى ص ١٦٩ ، دار الفكر للدراسات والنشر .

٢ - هجوم التتار الشرس على العالم الإسلامي :-

عندما دخل هولاكو وجنوده بغداد في الثالث عشر من فبراير ١٢٥٨م وارتكبوا فيها الجرائم من سلب ونهب وقتل دام أربعين يوما كاملا فتكوا فيها بثمانمائة ألف وهلك في هذه المذبحة الشاملة الآلاف من العلماء والطلاب والشعراء . ونهبت ودمرت في أسبوع واحد المكاتب والكنوز التي تضافرت في جمعها قرونا طويلة وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران[1] فزاد في حماسهم الخراب الذي كاد التتار أن يصيبوا به بلادهم وعلماءهم . كما أصابوا به من قبل البلاد الإسلامية الأخرى فكان ذلك البلاء حافزا على تدوين الكتب وحفظها خشية من ضياع التراث الإسلامي .

٣ - الأوقاف ودورها في خدمة الحركة التعليمية :-

لقد كان للأوقاف دور هام بالنسبة للتعليم سواء كان بالمدارس أو بالمكاتب التي عرفت باسم كتاب السبيل والأوقاف هي التي دعمت نظام المدارس في العصر المملوكي فكان الريع الذي تغله الأعيان الموقوفة على المدرسة شهريا أو سنوياً ، نقداً أو عيناً هو ضمان استمرار العمل بالمدرسة حيث تدفع منه مرتبات أرباب الوظائف بالمدرسة والطلبة حسب شروط الوقف ودون الأوقاف

---

(١) انظر / أول ديورانت " قصة الحضارة - عصر الايمان " ٢/ ٣٨٠ ، تحقيق دور دويتا كرافولسكي ٦٠٠هـ - ٧٤٩ هـ / ١٢٠١-١٣٤٩م

كان لا يمكن أن تقوم للمدرسة قائمة فى ذلك العصر[١] ولم يقتصر أثر الأوقاف على التعليم فى كونها المورد المالى للمؤسسة التعليمية سواء كانت مدرسة أو مكتباً لتعليم الأيتام ، بل حرص الواقفون فى ذلك العصر على أن يلحقوا بكل مدرسة خزانة كتب يرجع إليها المدرسون والطلاب ، ولا سيما الفقراء منهم مثال ذلك ما نصت عليه وثيقة وقف السلطان الغورى " وبها خلوة كبرى معدة لخزن الكتب بها جنبات خشب نقى يمنى ويسرى وصدرا مثبتة معدة لحفظ ما فيها من كتب العلم الشريف . الموقوفة على طلبة العلم الشريف لانتفاعهم بها فى المدرسة المذكورة "[٢] : وبلغ من عناية الواقفين بأمر تعليم الأيتام أنهم لم يكتفوا بإنشاء المكاتب وترتيب المؤدبين والعمال وتوفير الطعام والكساء فضلا عن مرتب شهرى للأيتام وفوق كل ذلك حرص الواقفون على توفير أدوات الكتابة[٣] ، وهكذا كانت الأوقاف ركنا ركينا وأساس التعليم بمراحله المختلفة فى العصر المملوكى وقد هيأت للعلماء ولطلبة العلم كل متطلبات الحياة التعليمية .

٣ - تعظيم سلاطين المماليك لأهل العلم :-

اهتم سلاطين المماليك اهتماما بالغا بالعلم والعلماء فشيدوا المدارس والمساجد والخانقات وزودوها بكل مستلزمات الدراسة العلمية . واهتموا

---

(١) انظر /د . محمد محمد امين : الاوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ص ٢٤٠ ، الاوقاف دار النهضة العربية ١٩٨٠م ، القاهرة .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٥ .

بالعلماء وأجزلوا لهم العطاء وقدموا لهم الإحترام والتكريم وقد روى أن الظاهر برقوق كان إذا قدم عليه عالم انتصب قائما على قدميه ومشى له خطوات ولما افتتح مدرسته كان يجلس مستمعا لدروس العلامة علاء الدين السرامي واشتهر الأشرف الغوري بمجالسه العلمية[1] . وهكذا فإن تلك العوامل تشابكت وتكاتفت فكانت بمثابة محرك قوي للعلماء . دفعهم لطلب المزيد من العلم .

---

(١) انظر / د . محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ٤/٢٩٦ ، القاهرة ١٩٦٠م .

الباب الثانى

المظاهر العامة للدعوة الاسلامية

فى العصر المملوكى

ويشتمل على أربعة فصول :

* الفصل الأول : دور سلاطين المماليك فى خدمة الدعوة الإسلامية
* الفصل الثانى : دور سلاطين المماليك فى الدفاع عن البلاد الإسلامية
* الفصل الثالث : الفتوحات الإسلامية فى العصر المملوكى وأثرها فى خدمة الدعوة الإسلامية
* الفصل الرابع : أبرز علماء العصر المملوكى وأثرهم فى نشر الدعوة الإسلامية

الفصل الأول

دور سلاطين المماليك

فى خدمة الدعوة الإسلامية

" الباب الثانى "

" المظاهر العامة للدعوة الإسلامية فى العصر المملوكى "

" الفصل الأول "

" دور سلاطين المماليك فى خدمة الدعوة الإسلامية "

اعتز المماليك بإسلامهم فلم يكن يربط بينهم رابطة صهر أو قرابة وإنما ربط بينهم الدين الإسلامى الحنيف ، حتى كان السلطان فى العهد المملوكى يعرف باسم سلطان الإسلام والمسلمين . وسموا امبراطوريتهم بالمملكة الإسلامية[1] ، وبذل المماليك قصارى جهدهم فى خدمة الدعوة الإسلامية من خلال حفاظهم على الجبهة الداخلية بحيث كانت جهود سلاطين المماليك ترتكز على محاربة الفساد ونشر الفضيلة والعدل ومحاولة بناء مجتمع إسلامى يكون عونا له فى جهادهم مع أعداء الأمة الإسلامية . وأول من سعى فى تحقيق ذلك السلطان الظاهر بيبرس الذى يعد بحق المؤسس الحقيقى لدولة المماليك الأتراك ولم يكن يدعو إلى شيء يفقده فقد كان رحمه الله كما قال ابن كثير :-

" كان شجاعا عالى الهمة بعيد الغور مقداماً جسوراً معتنياً بأمر السلطنة ، يشفق على الإسلام متحليا بالملك ، له قصد صالح فى نصرة الإسلام وأهله "[2] .

---

(١) انظر/د . على ابراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ص٢٠١ ، ط/ النهضة المصرية ١٩٦٧م .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جزء ١٣ ص ٢٧٥ ، دار الفكر العربى .

وسنتناول بالدراسة أهم الأعمال التى نرى أنها مفخرة لسلاطين المماليك ومساهمة إيجابية وفعالة فى خدمة الدعوة الإسلامية .

أولاً : إحياء الخلافة العباسية :-

أحدث سقوط الخلافة العباسية على أيدى التتار رعبا للمسلمين فى العالم الإسلامى ، وظل المسلمون بدون خليفة ثلاث سنوات حتى أحيا الظاهر بيبرس الخلافة العباسية سنة ٦٦٦ هجرية ، وإن كانت عادت شكلا فإنها كانت رمزا لوحدة المسلمين وفى الواقع أن الأمم الإسلامية كانت فى هذا الوقت متعلقة بأهداب الخلافة ناظرة إلى الخليفة نظرة إكبار وإجلال[1] ، فقد كان للخلافة هيبة فى نفوس الأعداء وحصن منيع للمسلمين سعوا إلى محاربته . حتى أن السير وليم موير جعلها من أعمال السلطان بيبرس المجيدة حيث قال " ومن جميل أعماله أنه أعاد الخلافة إلى العباسيين "[2] .

ثانيا : محاربة الفساد :-

بعد استقرار السلطة لتولى السلطان الظاهر بيبرس ، سعى سلاطين المماليك إلى بناء الدولة الإسلامية على أسس إسلامية صحيحة فبذلوا الجهود

---

(١) انظر د . / محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ٦١ ، دار الفكر العربى ١٩٦٠م .

(٢) السير وليم موير : تاريخ دولة المماليك البحرية ص ٥٣ ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ـ المعارف ـ القاهرة .

لمحاربة الفساد الذى دائما يكون العقبة فى الجهود الإصلاحية .

فكان الملك الظاهر بيبرس لا يرى شيئا من الفساد إلا سعى فى إزالته بجهده وطاقته . فحارب الخمور والإنحلال الخلقى فرسم بإراقة الخمور وقضى على أماكن الفساد . فضيقوا على أهل المنكر وسلبوا جميع ماكان معهم حتى يتزوجن[1] ، وكتب إلى جميع البلاد بذلك فضاقت بهم سبل العيش فى عهده وقل عددهم واستراحت البلاد من مفاسدهم . ولم تكن قرارات الملك الظاهر بمحاربة الفساد قرارات نظرية وإنما طبقت بصرامة من جانب قواته ولم يكتف بذلك بل كان يتفقد الرعية بنفسه متشبها بذلك بالخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم .

فقد ذكر المقريزى عن بيبرس " أنه نزل ذات مرة من قلعة الجبل بالليل متنكراً . وطاف بالقاهرة ليعرف أحوال الناس ، فرأى بعض المقدمين قد أمسك امرأة وعراها سروالها بيده . ولم يجسر أحد ينكر عليه فعاقبهم السلطان بأن قطع أيدى جماعة من نواب الولاة والمقدمين ، والخفراء "[2] ، حتى قيل فى ذلك :-

ليس لإبليس عندنا إربُ ... ففير هذى البلاد مأواه

حرمته الخمر والحشيش معاً ... أعدمته ماءه ومرعاه

---

(١) انظر المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك جزء (١) ص ٥٤٠ ، القاهرة ١٩٧٠م .

(٢) المقريزى : السلوك ١/ ٥٤٠ ، القاهرة ١٩٧٠ .

وصار سلاطين المماليك من بعده على ذلك الضرب فكان للسلطان الناصر محمد بن قلاون دور بارز لمحاربة الفساد فقد رسم بإراقة الخمور ومنع من التظاهر بشيء من المنكرات ، ويبدو أنه في الفترة التي تلت سلطنة الظاهر بيبرس تسربت بعض مظاهر الإنحراف . ومن ثم فإن الناصر قلاون جعل محاربة هذه الإنحرافات[1] في الأولوية بالنسبة لإصلاحاته وشدد كل من الظاهر حقمق والملك المؤيد في الخمور وأمر بإحراق مايوجد في مظانها[2].

ولا شك أنهم لم يشددوا في إبطال هذه المنكرات إلا لإيمانهم بأن تلك المنكرات تورث الفقر والذل وتخمد الهمة وتضعف النفس ، إذ أن الخمر من أفحش الذنوب وأعظمها خطرا على المجتمع الإنساني كله لذلك حرمها الشارع وشدد في تحريمها وفي ذلك يقول الله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ "[3] فوصف الله تعالى الخمر بأنه رجس أي قذر تنفر منه العقول السليمة وهو لفظ يدل على منتهى القبح والخبث[4] . وكذلك الحشيش حيث

---

(١) انظر/د . حامد غنيم ابو سعيد :الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ٣/٢٧٤ .

(٢) انظر ابن حجر العسقلاني ،التاريخ والمنهج التاريخي ص ٣٩٩ ، دار اقرأ ، ط/ ١٩٨٤م.

(٣) سورة المائدة آية رقم ٩٠ .

(٤) انظر عبد الرحمن الجزيري ،الفقه على المذاهب الاربعة حاشية ٥/١١ دار الفكر العربي .

زعم بعض الفساق أنّ الحشيش ليست محرمة ولكن كلمة العلماء اجتمعت على تحريم هذه المشروبات وغيرها من المخدرات المحدثة . وقد قال علماء الحنفية في ذلك " إن من قال بحل الحشيشة زنديق مبتدع "[1] ولذلك كان محاربة سلاطين المماليك لهذا الفساد عملاً جليلاً للدعوة الإسلامية . ولعبت الحسبة[2] دوراً هاماً في محاربة الفساد فيذكر أنّ المحتسب في

---

(١) عبد الرحمن الجزيري ، الفقه على المذاهب الاربعة حاشية ٥/٣٨ ، دار الفكر العربي .

(٢) الحسبة : معناها في اللغة تدل على العد والحساب، ويقال احتسب بكذا اذا اكتفى بها ، واحتسب على فلان الامر ، انكره عليه .
واحتسب الاجر على الله : أدخره لديه
والحسبة اسم من الاحتساب والاحتساب يستعمل في فعل ما يحتسب عند الله تعالى .
معناها في الاصطلاح : الحسبة عند الفقهاء امر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله . ودليل مشروعيتها وورد ايات كثيرة تدل على ذلك منها قوله تعالى " وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " سورة ال عمران آية ١٠٤ .
" وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ " سورة التوبة من الاية ٧١ .
انظر /د . عبد الكريم زيدان ، اصول الدعوة ص ١٧٤ ، مكتبة القدس .

العصر المملوكي كان يريق الخمور . وشغلت المرأة جانبا كبيرا من اهتمام الحسبة . فكان المحتسب يراقب المرأة وماينبغي أن تكون عليه وما يحرم عليها فعله وارتداؤه . ومنع النساء من الجلوس على أبواب بيوتهن في طرقات الرجال وذلك العمل يتفق مع الشرع حيث إن الله تعالى يقول : " وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ "(١) .

ولم تقتصر محاربة الفساد على الخمور والانحلال الخلقي فقط وإنما تعدى إلى محاربة الرشوة ذلك الوباء الذي يقضي على ثمرة العمل وكان للسلطان الناصر محمد بن قلاون دور فعال في محاربة الرشوة فعاقب(٢) عليها فلا يتقلد المناصب إلا مستحقوها . وذلك نجده قد أخذ بقول الله تعالى " وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ "(٣) .

وفي قوله " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ "(٤) . ومارواه الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لعن الله الراشي والمرتشي(٥) " .

---

(١) سورة الاحزاب من الاية ٣٣ .

(٢) انظر عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاخبار ص ٣٤٠ ، دار الجيل - بيروت .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٤) سورة النساء من الاية ٢٩ .

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جزء ١٥ ص ٣٨٢ .

فقال العلماء : الراشى هو الذى يعطى الرشوة والمرتشى هو الذى يأخذ الرشوة وإنما تلحق اللعنة الراشى إذا قصد بها أزية مسلم أو ينال بها مالا يستحق[١] .

ثالثا : محاربة البدع والفتن :-

يروج أصحاب الدعوات الهدامة البدع والفتن لتحقيق مأربهم وتقف تلك البدع عقبة فى طريق الدعوة الإسلامية . مالم تجد من يكشف قناعها ويوضح حقيقة أمرها . وروجت البدع فى العصر المملوكى حتى أن ابن كثير يعتبر إبطال بدعة نصف شعبان من العجائب فيقول " ومن العجائب والغرائب التى لم يتفق مثلها . ولم يقع من نحو مائتى سنة أو أكثر ، أنه أبطل الوقيد بجامع دمشق فى ليلة النصف من شعبان "[٢] وكان مما استقر فى ذهن العامة أن من أبطل ذلك سيموت فى نفس العام[٣] فكان مرسوم السلطان الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاون بأبطالها فبطلت . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على خطورة الأمر وسيطرت تلك البدع على عقول الناس فى ذلك الوقت . وانتشرت الفتن فى الأسواق والحمامات العامة واحتفالات النصارى بعيد الشهيد حيث يزعم النصارى أن لديهم تابوت فيه إصبع يزعمون أنه إصبع بعض شهدائهم وأن النيل لا يزيد مالم يرمى

---

(١) الذهبى ، الكبائر ص ١٤٣ ، مكتبة المتنبى .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جزء ١٤ ص ٢٣٥ ، دار الفكر العربى .

(٣) نفس المرجع السابق .

فيه هذا التابوت ويحضر ذلك جمع كبير من النصارى ويمتلئ البر بالخيم والبحر بالمراكب المشحونة بالناس ويحدث فى ذلك الفتن والمنكرات ولا يقتصر الأمر على مشاركة عامة المسلمين ذلك الإحتفال . وإنّما شارك فى الإحتفال الأمراء وعن تلك الفتن يحدثنا المقريزى " ولا يبقى صاحب غناء ولا لهو حتى يحضر ، وتتبرج زوانى سائر البلاد ، ويباع فى ذلك اليوم من الخمر بنحو مائة ألف درهم [١] ، ويزيد من خطورة الأمر أن العامة تعتقد أن زيادة النيل متوقفة على رمى هذا التابوت ، ولم يكن الأمر سهلا لإبطال تلك الفتن لولا شجاعة الأمير بيبرس الجاشنكير الذى كتب إلى جميع الولاة بالنداء ألا يخرج أحد إلى عمل عيد الشهيد فعظم ذلك على النصارى وسيروا إليه تاج بن سعيد لتمكنه من الأمير بيبرس . فأخذ يحذره من تأثير ذلك القرار على الخراج . فلم يلتفت إليه وصمم على إبطاله [٢] .

وكان عيد الشهيد بمصر مثل ماكان يفعله المصريون فى كل ليلة عيد بإلقاء جارية حسناء فى النيل [٣] ويزعمون أن النيل لا يزيد إلا بإلقاء تلك الجارية فى النيل ، فبطل ذلك على يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وزالت تلك العادة السيئة عن أهل مصر ، وعرف سلاطين المماليك خطورة تلك الفتن على الدعوة الإسلامية ولذلك نجدهم ينكرون كل مايؤدى إلى الفتنة .

---

(١) المقريزى ، السلوك ١ / ٢٤٠ ، القاهرة ١٩٧٠م .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٠ .

(٣) انظر ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ١ / ٥٦٧ ، القاهرة ١٩٧٥م .

فقد حدث أن توقف النيل لمدة سبعة أيام فى مدة حكم الملك المؤيد فنودى فى الناس بصيام ثلاثة أيام ثم خرجوا إلى الصحراء يستسقون وحضر السلطان والقضاة والمشايخ وكثر الجمع جدا وجلس السلطان على الأرض وصلى بهم القاضى ركعتين كهيئة صلاة العيد ثم رقا منبرا وضع له هناك فخطب خطبتين حث الناس فيهما على التوبة والاستغفار وحذرهم ونهاهم ثم تحول فوق المنبر والسلطان فى ذلك يبكى وينتحب وقد باش فى سجوده التراب بجبهته. ثم ركب السلطان والعامة يحيط به فدعا له بعضهم بالنصر فقال سلوا الله فإنما أنا واحد منكم. ونودى فى صباح ذلك اليوم بزيادة النيل اثنى عشر ذراعا فاستبشر الناس بإجابة دعواهم ونودى مرة ثانية بزيادة النيل فاتفق أن السلطان سبح فى النيل وهو فى بيت كاتب السر الذى على شاطىء النيل فاستبشر الناس وقالوا إن ذلك ببركة السلطان فسمع ذلك وأنكره[1] عليهم وقال لو علمت بسباحتى يحدث ذلك ما سبحت لأن مثل ذلك تضل به العامة فهكذا كانت صفات الملك المؤيد شجاعا عالى الهمة كثير الرجوع إلى الحق محبا للشرع وأهله صحيح العقيدة[2] كثير التنظيم لأهل العلم والإكرام لهم وهو بذلك يدرك خطورة تلك الفتن على العامة خاصة. وقد عرف الشيخ على محفوظ ذلك فقال "إن الأوهام مرض عام مكروه منتشر فى كل مكان إلا أن المتعلم العاقل يقوى عليه فيضعفه وغيره لا يقوى عليه فيصبح مرتعا له يسرح

---

(١) انظر ابن حجر العسقلانى، التاريخ والمنهج التاريخى ٣/ ٢٢٠، دار اقرا ط/ ١٩٨٤م.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٢٣٧.

فيه ويمرح وأكثر أوهامهم فى المسائل الدينية [١] فكان دورهم فى محاربة ذلك حرصا منهم على اتباع الحق . فحاربوا البدع عملا بقوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٢] فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذى دعى إليه وهو السنة والسبل وهو سبل أهل الإختلاف الحائرين عن الصراط القويم وهم أهل البدع والأهواء [٣] .عن عائشة - رضى الله عنها - قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - " من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد [٤]

رابعاً : القضاء على فرقة الحشاشين بسوريا :-

فرقة الحشاشين هى من أهم الجماعات التى نشرت الذعر فى كثير .

---

(١) على محفوظ الابداع فى مضار الابتداع ص ٤٤١ ، دار الاعتصام .

(٢) سورة الانعام الاية رقم ١٥٣ .

(٣) انظر / على محفوظ ، الابداع فى مضار الابتداع ص ٩٢ ، دار الاعتصام .

(٤) عمدة القارى شرح صحيح البخارى ، الجزء الحادى عشر والثانى عشر ، ط / اولى ، مكتبة ومطبعة البابى الحلبى ص ١٩٣ .

من البلاد الإسلامية خاصة خلال عهد الأتراك السلاجقة[1] واشتهروا بالتآمر والغدر والقتل وزعيم الحشاشين هو الحسن بن الصباح وهو في الراجح فارس من طوس وأنه ادعى غير ذلك وقد درس في حياة مذهب الباطنية واعتنقها واحتل السلطان بيبرس حصونهم بسوريا سنة ١٢٧٢م ، فتشتت شملهم منذ ذلك الحين وبذلك تخلص المسلمون من " تلك الفرقة التي عبثت بالقيم والمبادىء وامتد نشاطها في الدس والاغتيالات[2] حتى أصبحت خطرا جسيما على الإسلام والمسلمين " .

---

(١) السلاجقة أوال سنجوق : دولة تركية انشأت في عهد العباسيين اتو في الاصل من السهول الواقعة شمال بحر قزوين وهم ينتسبون الى سنجوق احد مقدميهم الذى أقرهم في القرن العاشر للبميلاد في بخارى . حيث اسلموا ولقب حفيده طغرلبك سلطانا واستولى على خرسان وغيرها من الولايات الايرانية ، سنة ١٠٥٦م استولى على بغداد واستقر بها تابعا للخليفة ولقب امير الامراء ، وتوفى سنة ١٠٦٣ ميلادية وخلفه ابن اخيه ألب ارسلان وتوفى سنة ١٠٧٣ ميلادية وخلفه ابنه مالك شاه فجعل اصفهان عاصمة مملكته التي كانت تمتد من حدود الصين الى القسطنطينية وبعد وفاته سنة ١٠٩٣ اختلف اخيه وأولاده الاربعة على الخلافة فنشأت حروب أهلية نتج عنها انقسام الدولة السلجوقية بين اربعة افرع اهمها كان في بلاد فارس وانقرضت مملكته سنة ١٣٠٨م فاستولت الدولة العثمانية على اكثر بلادهم .

المرجع : بطرس البستاني ، دائرة المعارف ٩/٧١٦ .

(٢) د . / احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ٥/٢٣٦ مكتبة النهضة ١٩٩٠م .

خامسا : الدعوة إلى الله بالسلوك وأعمال البر :-

إن الدعوة إلى الله بالسلوك والقدوة الحسنة أوقع أثرا وأعظم نفعا من الدعوة إلى الله بالكلمة وانتهج معظم سلاطين المماليك السلوك القويم . فبعدل سلاطين المماليك لجأت إلى مصر طوائف التتار التى فرت من حكم قائدهم وقد اعتنقت هذه الطوائف الدين الإسلامى ورحب بهم سلاطين المماليك وعرفوا بالوافدين[1] . وقد ذكر أن الملك الناصر محمد بن قلاون أسقط جميع النقوش من أعمال المماليك المصرية والشامية وكان لا يقضى إلا بالحق .

وراك البلاد بالمروك الناصرى[2] وكان يخير الشيخ (الحسن) بين الإقطاع والمراتب فيعطيه مايحتاجه وكان سبب صدور المروك الناصرى أنّ أصحاب بيبرس الجاشنكير وسلار وجماعة من البرجية كان نصيب الواحد منهم مابين ألف مثقال فى السنة إلى ثلثمائة مثقال وكان رحمه الله عادلا فمما يذكر أنه كان إذا دخل جندى وتحدث عنه الأمراء بالمبرح ليزيد له السلطان فى

---

(١) د . / احمد شلبى ، موسوعة التاريخ الاسلامى ٥ / ٢٤٠ مكتبة النهضة سنة ١٩٩٠ .

(٢) المروك الناصرى : الروك كلمة قبطية قد اصطلح على استعمالها القيام بعملية قياس الارض وحصرها فى سجلات وتنميتها اى تقدير درجة خصوبة تربتها لتقدير الخراج عليها ، ويقولون راك البلاد ويروكها اى فلك زمامها ويقابل الروك فى الوقت الحاضر علينا فك الزمام راك البلاد المصرية وكتب بها مقالات سلطانية اى قوائم مساحية رسمية بما يخص كل واضع يد (انظر ابن تغرى : النجوم الزاهرة ٩ / ٤٢) .

إقطاعه[١] خالفهم السلطان وأعطاه مايستحق فقط مما أجبر الأمراء على السقوط . وشمل عدل الملك الناصر أهل الذمة فكان ذلك دافعا فى دخول الكثير فى الإسلام فلعل خير مايترجم عن بعده عن روح التعصب الزميم الذى كان سائدا فى الشرق وفى الغرب على السواء ، فأوقع من اقتصاصه من رجل مسلم قتل مسيحى بغير حق وذلك أنه قدم بالقاهرة من دمشق رجل من أهل التصوف وقد رأى أثناء وجوده شخصا مسلما قد أقبل على نصرانى فقبل يده ويرجوه فى أمر من الأمور . ولاحظ هذا الصوفى أن النصرانى منصرفا عن المسلم فألمه ذلك أشد الألم وتقدم من النصرانى وقتله واجتمع الناس حول القاتل والقتيل أما المسلم الذى أثار هذه المشكلة فقد اختفى وقبضت الشرطة على القاتل ، ورفع أمره إلى السلطان فأمر بضرب عنقه[٢] على باب القلعة جزاء وفاقا لاعتدائه بغير حق على ذلك النصرانى . ولو نظرنا لتلك الواقعة ورجعنا بالحكم الشرعى فى ذلك لرأينا أن الفقهاء اختلفوا فى ذلك الأمر . وقال المالكية يقتل الأدنى صفة بالأعلى كزمى قتل مسلما أو كحر كتابى يقتل بعبد مسلم ، لأن الإسلام أعلى من الحرية ولا يقتل الأعلى بالأدنى كمسلم بكافر وكمسلم رقيق بالحر الكتابى .

---

(١) انظر ابن تغرى : النجوم الزاهرة ٩/١٩٨) .

(٢) انظر محمد عبد العزيز مرزوق : الناصر محمد بن قلاون ص ٢٩٢ ، المؤسسة المصرية العامة .

قال الشافعية والحنابلة ببطلان قتل المسلم بزمى .

أما الحنفية قالوا بقتل المسلم بالزمى لأن الله تعالى قال " الحُـــــرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ والأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ "[1] وقالوا الزمى مع المسلم متساويان فى الحرمة التى تكفى فى القصاص وهى حرمة الدم الثابتة على التأبيد والمسلم كذلك وكلاهما قد صادق أهل دار الإسلام ، والذى يحقق ذلك أن المسلم تقطع يده بسرقة مال الزمى وهذا يدل على أن مال الذمى قد ساوى مـــال المسلم فدل على مساواته بدمه ، إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه[2] واحتجوا بما روى محمد بن الحسن عن إبراهيم رحمه الله تعالى " أن رجلاً مـــن المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة ورفع ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " أنا أحق من وفى بذمته ، ثم أمر به فقتل "[3] وقد أخذ الملك الناصر قلاون بالمذهب الحنفى حين حكم بقتل الرجل المسلم الذى قتل المسيحـى بغير حق ويعتبر ذلك فى قمة العدل إذا ماقورن بالمجتمعات الغربيـــة والشرقية على السواء فى عصره .

هذا إلى جانب تعدد أعمال البر فى العصر المملوكى فأقاموا التكايا : وهى مؤسسات عرفت فى هذا العصر يقدم فيها المأكولات للعاطلين[4] والأسبلة أمكنة للشراب عرفت بالسبل أقيمت لأبناء السبيل كما أقاموا المؤسسات الخيرية

---

(١) سورة البقرة من الاية رقم ١٧٨ .

(٢) انظر عبد الرحمن الجريزى ، الفقه على المذاهب الاربعة ص ٢٨٢ : ٢٨٥

(٣)

(٤) انظر د/ احمد شلبى ، موسوعة التاريخ الاسلامى ٥ / ٢٧٤ مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

المختلفة عملا بقوله تعالى " وءات ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا "(١) فأقام الملك المنصور قلاون بيمارستان وعنه يقول السيد وليم موير " إن الذى جعل ألسنة الناس تلهج بالثناء عليه ، والإعتراف بحسن صنيعه هو ذلك البناء الضخم الذى شيده فى المدينة والذى يشمل بيمارستان ومدرسة تحتوى على قبة فيها قبره . وقد أعد فيه غرفا ممتعة وفرشها بالأسرة للمرضى من الفقراء والأغنياء وعين فيه محاضرين وذودوها بمعمل كيماوى بكل أنواع المعدات الطبية وعين فيها خمسين من القراء يتلون آيات الله ليلا ونهارا وفى ذلك يقول الله تعالى " وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا "(٢) .

وأقام مدرسة وملجأ للأيتام(٣) ، إلى جانب ذلك ظهرت الموائد الرمضانية ووجدت أوقاف على تكفين أموات الغرباء(٤) بالقاهرة ومصر . وقد حدث أن اشتد الحال بالناس سنة ٦٦٢ هـ وعدمت الأقوات وضج الفقراء بالجوع وكان ذلك فى عهد الظاهر بيبرس فأحصاهم وكلف كل أمير بالإنفاق على عدد معين منهم وتولى هو بنفسه خمسمائة فقير(٥) ، عملا بقوله تعالى " ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا "(٦) فهكذا كان سلوك السلاطين المماليك عظيما للدعوة الإسلامية .

---

(١) سورة الاسراء اية ٢٦ . (٢) سورة الاسراء اية ٨٢ .

(٣) انظر وليم موير ، تاريخ دولة المماليك البحرية ص ٦١ .

(٤) انظر ابن تغرى ، النجوم الزاهرة ٧/ ١٨٠ .

(٥) انظر محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ٧٢ ، دار الفكر العربى سنة ١٩٦٠م . (٦) سورة الانسان اية ٨ .

سادسا : أعمار المساجد :-

للمسجد مكانة عظيمة فى الإسلام فعمار هم صفوة خلق الله من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من عباده المؤمنين وقال الله سبحانه وتعالى عن عمار المساجد " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ "(١) ووعد الله سبحانه وتعالى من بنى له بيتا فى الأرض أى مسجدا لله تعالى بنى الله له بيتا فى الجنة كما فى حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من بنى لله مسجدا بنى الله له كهيئته فى الجنة "(٢) واهتم سلاطين المماليك بإنشاء المؤسسات الدينية عامة والمساجد(٣) بصفة خاصة فى محاولة لتقوية رباط الدين بين أبناء الأمة الإسلامية وحرصا منهم على إحياء الشعائر الإسلامية حتى قال عنها القلقشندى " إنها أكثر من أن تحصى وأعز من أن تستعصى(٤) . وفى هذا المجال قامت الأوقاف بدور كبير من أجل تقديم المساجد والجوامع وتمكينها من أداء رسالتها ويمكن أن نقول إن قوة الشعور الدينى التى وجدت فى العصر المملوكى صحبها ازدهار الأوقاف وانتشارها(٥) . فأصبحت المساجد فى العصر المملوكى مركزا للإشعاع الفكرى والحضارى وذلك بأن السلاطين

---

(١) سورة التوبة آية ١٨ .

(٢) مسند الامام احمد بن حنبل ، المجلد الاول ، دار الفكر العربى ص٢٠

(٣) للمزيد عن مساجد العصر المملوكى راجع د . سعاد ماهر : مساجد مصر واوليائها الصالحون ٣/ ٤ ، القاهرة .

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ٣/ ٣٦٥ ، الهيئة المصرية .

(٥) انظر د . محمد محمد امين ، الاوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ص١٨١

والأمراء أوقفوا عليها الأموال والأراضى تشجيعا للعلم والعلماء وقد أدت المساجد رسالتها العلمية وأسهمت فى نشر الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية (١).

وفى حديثنا عن دور المماليك فى إعمار المساجد لابد أن نشير إلى الدور الرائد من سلاطين المماليك فى إعادة الأزهر مجده .

استرداد الأزهر مكانته :-

ظل الأزهر محروما من إقامة صلاة الجمعة فيه ثمانية وتسعين عاما من سنة ٥٦٧ هـ حتى سنة ٦٦٥هـ / سنة ١١٧١ حتى سنة ١٢٦٧ ميلادية وقد استغرقت هذه السنوات حكم الدولة الأيوبية وزهاء سبع عشرة سنة من حكم دولة المماليك البحرية وعاش الأزهر طيلة هذه الفترة متخلفا عن مساجد القاهرة بعد أن كان المسجد الأول فى الديار المصرية . والمسجد الرسمى للدولة فى العصر الفاطمى (٢) ويرجع ذلك إلى سياسة الأيوبيين التى كانت تهدف إلى محاربة التشيع وبما أن الأزهر كان بؤرة الإشعاع للمذهب الشيعى فى العصر الفاطمى فقد أصطدم الأيوبيين بالأزهر كجامع وجامعة . إلا أن المماليك أحسنوا التصرف حينما حاربوا الفكر بالفكر فجعلوا الأزهر مركزا

---

(١) انظر د . فتحية النبراوى : تاريخ النظم الإسلامية ص ٢٧٥ .

(٢) انظر عبد العزيز محمد الشناوى : بحث فى كتاب دراسات فى الحضارة الاسلامية ص ٦٦ : ٦٨ .

للإشعاع الفكرى والحضارى وقوة علمية تدافع عن المذهب السنى وتنشره وأعيدت الخطبة فى الجامع الأزهر فى عهد بيبرس وقدمت الهبات وتوالت إمارتهم لعبناه فاجتذب الأزهر إليه صفوة من العلماء من أنحاء العالم الإسلامى وبذلك أعيد للأزهر مكانته وقد قال القلقشندى : "إن الجامع الأزهر قد أخذ منذ ذلك الوقت يتزايد أمره حتى صار أرفع الجوامع بالقاهرة قدرا "(١).

سابعاً : إكرام العلماء والدعاة :-

اهتم سلاطين المماليك بالقائمين على أمور الدعوة الإسلامية فعينوا للمساجد دعاة ومؤذنين وعمالاً وأنزلوا لهم العطايا ورفعوا من شأنهم فتولوا المناصب الرفيعة فى الدولة كالوزارة ونظارة بيت المال ونظارة الخاص وكتابه السر والقضاء .

ثامنا : تعظيم الأماكن المقدسة :-

عظم الله الأماكن المقدسة فعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى "(٢) وجعل الله البيت الحرام محطة أنظار المسلمين فكل مسلمى

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ٣/٣٦٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م .

(٢) صحيح مسلم فى شرح النووى - المجلد السابع جـ ٩ كتاب الحج باب فضل المسجد الثلاثة ص ١٦٧ .

العالم يتجهون إليه فى صلواتهم " وَمِن حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ "(١) ويحجون إليه طلبا للإستغفار والرحمة فيقول الله تعالى " وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً "(٢) وفى قوله " وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ "(٣) .

وعظم المسجد الأقصى فكان مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سبحانه وتعالى " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا "(٤) وأولى سلاطين المماليك الأماكن المقدسة اهتماما وتقديرا عظيما فبالغوا فى احترام أمرائها وأهلها ففى سنة ٦٦٧ هـ قدم السلطان بيبرس إلى مكة المكرمة فى الخامس من ذى القعدة وبقى كأحد الناس لا يحجبه أحد وغسل الكعبة الشريفة بيده وحمل الماء على كتفه(٥) بالقربة ، وغسل البيت وجلس على باب الكعبة وأخذ بأيدى الناس . وسبل البيت الحرام للناس وعمر الحرم النبوى الشريف . ولم يكتف بيبرس بالعناية بالحرمين الشريفين بل أمر سنة ١٢٦١ بإرسال الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس وحدد مسجد إبراهيم عليه السلام(٦) . وقد

---

(١) سورة البقرة من الاية رقم ١٤٩ .

(٢) سورة آل عمران من الاية رقم ٩٧ .

(٣) سورة الحج الاية رقم ٢٧ .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ١ .

(٥) انظر العينى : عقد الجمان ٢/٤٦ .

(٦) د / احمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الاولى فى مصر والشام ص ١٩٧ .

ذكر عنه الناصر محمد بن قلاون حج سنة ثماني عشرة وسبعمائة ووزع علـــى فقراء مكة نحو عشرين ألف دينار وأبطل أشياء كثيرة من المكوس التى كانـــت بمكة ، ثم بعد ذلك توجه إلى المدينة الشريفة فدخلها ماشيا [1] على أقدامـه وقيل فى ذلـــك :-

دنوت تواضعا وعلوت مجـــدا فشأناك انخفاض وارتفـــاع

فذاك الشمس تبعد إن تسامى ويدنو الضوء منها والشعـــاع

وزار قبر النبى صلى الله عليه وسلم وهو مكشوف الرأس ثم وزع على فقـــراء المدينة عشرين الف دينار كما فعل بمكة ، واهتم ايضا بمعظم سلاطـــين المماليك بالأماكن المقدسة بما فى ذلك بيت المقدس [2] ، واعتبر سلاطـــين المماليك إقليم الحجاز والأماكن المقدسة جزءا لا يتجزأ من مملكتهم الإسلامية وشعروا بالمسئولية تجاه رعاياها ويؤكد ذلك تلك الحادثة . فقد ذكـــر أن الملك الظاهر بيبرس بلغه أن الشريف محمد بن تمى بن سعيد حاكم مكـــة والمدينة المنورة وقع منه ظلم للتجار والحجاج والمارين والواردين إلى الحرمين الشريفين وتجاوز الأمور وخرج عن الحد فكتب إليه . أما بعد فالحسنة فـــى

---

(١) انظر / ابن اياس : بدائع الزهور من وقائع الدهور جـ ١ القسم الاول ص ٤٤٩ تحقيق محمد مصطفى : الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٠.

(٢) للمزيد عن اهتمام سلاطين المماليك بيت المقدس ، راجع د . محمد سيد على : القدس فى العصر المملوكى تحت عنوان " الانجازات والمنشئات ذات الدلالة الدينية التى انشئت فى العصر المملوكى لبيت المقدس ص ٢٧ : ٣١ .

نفسها حسنة وهى من بيت النبوة أحسن والسيئة فى نفسها سيئة وهى من بيت النبوة أقبح . وقد بلغنا أيها السيد أنك بدلت حرم الله بعد الأمن بالخيفة وفعلت مايحمر الوجه ويسود الصحيفة . فكيف تفعل القبيح وجدك الحسن وتضيع الفروض ومن بينكم عرفت الفروض والسنن وتقاتل حيث لا تكون فتنة وأنت من أهل الكرم وساكن الحرم . فكيف آويت المجرم وأسفكت دم المحرم ومن يهن الله فماله من مكرم ، فإن لم تقف عند حدك أغمدنا فيك سيف جدك والسلام " فكتب إليه الجواب " أما بعد فالمملوك معترف بذنبه تائب إلى ربه . فإن أخذت فأنت الأقوى وأن تعفوا أقرب للتقوى[1] . فهكذا نعمت الأماكن المقدسة فى العصر المملوكى بعناية خاصة وأن دل ذلك إنما يدل على تعظيم سلاطين المماليك للإسلام وزادهم ذلك احتراما من الرعية .

تاسعا : تربية النشىء من المماليك تربية إسلامية :-

يعتبر تربية النشىء من المماليك تربية إسلامية هى القاعدة التى انبثق منها العمل الإسلامى لخدمة الدعوة الإسلامية فى ذلك العصر حيث كان لسلاطين مصر وقتئذ عناية بالمماليك من جميع الأجناس واحتفال زائد بتربيتهم وكانوا يسكنوهم القلعة فى طباق مخصوصة ويسلم المملوك الصغير إلى معلم يعلمه القراءة والكتابة وكان لكل طائفة فقيه يعلمهم أمور الدين والآداب ، والقرآن . فإذا شب وقوى سلم المعلم بعلمه أنواع الحرب وفنون الفروسية وفى

---

(١) انظر/ محمد بن على الاسماقى : اخبار الاول فمن تصرف فى مصر من ارباب الدول ص ١٤١ .

ذلك نظام تربوى بناء هادف لخدمة الإسلام والمسلمين . إذ أن القـــوة وحدها دون إيمان لا تكفى لبناء مجتمع إسلامى . فخضوع المملوك لتلك التربية الإسلامية هو ما جعلنا نجد فى سلاطين المماليك النزعة الإيمانية . وفى ضوء ذلك يمكن تفسير الأحداث التاريخية فى ذلك العصر . فنجد أن السلطـان سيف الدين قطز عندما وجد علامات القلعة لدى بعض الأمراء . خاطبهـــم بروح الإسلام وأيقظ فيهم شعيرة الجهاد . فضجوا بالبكاء وبذلك قضى علـى الإنهزامية فى صفوف جيشه . وما حدث أثناء إقدام ستقر الأشقر عندمـــا تصارع على السلطة مع السلطان المنصور قلاوون وعزم على قتال الجيش المصرى فوجه إليه قلاوون خطابا يذكره بمصلحة الأمة الإسلامية فعدل عن ذلـــك ويفسر لنا تعدد أعمال البر فى ذلك العصر . حتى أننا نجدهم حريصـين على نشر الفضيلة بين أفراد رعيتهم فقد ألزم الظاهر بيبرس رجال حاشيتـــه[1] بأداء الصلوات فى أوقاتها ليكونوا قادة الشعب فى الأمور الدينية . كما هـم قادته فى الشئون السياسية وكان هو مثلا أعلى فى ذلك . حيث يذكر أنـــه كان رحمه الله ملازما للصلوات الخمس فى أوقاتها سفرا أو حضرا[2] . وذلـك لأنه يعلم جيدا أنها الصلة بينه وبين ربه ، ولأنها الماحية للذنوب .

---

(١) انظر/ د محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٤ ، دار الفكر العربى ١٩٦٠م .

(٢) انظر / د حامد غنيم ابو سعيد : الجبهة الاسلامية فى عصـــر الحروب الصليبية ٣/ ٢٧٣ .

فحقا لقد تربوا فى كل مدارس الحرب والسياسة ، فكانوا وهم صغار متضلعين بالعلوم ، والفلسفة ، والدين ، فضلا عن الفروسية واستعمال السلاح وبذلك كانوا جائزين [١] لجميع الصفات التى تؤهلهم لمركز القيادة وأنهم برعوا فى الفنون الحربية ، بحيث كانوا سادة يديرون الممالك ، وقادة يجاهدون فى سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل .[٢]

---

(١) انظر / دراسة رشدى . مصر الشراكسة ص ١٣٨ ، القاهرة ١٩٤٨

(٢) د / عبد المنعم ماجد : طومان باى آخر سلاطين المماليك ص ٢٦ مكتبة الانجلوا المصرية ١٩٧٨م .

الفصل الثانى

دور سلاطين المماليك

فى الدفاع عن البلاد الإسلامية

الفصل الثانـــى

" دور سلاطين المماليك فى الدفاع عن البلاد الإسلامية "

زامن سقوط الدولة الأيوبية وأنتقال السلطة من الدولة المملوكيـــة أن تعرض العالم الإسلامى لأخطار كثيرة هددت كيانه . وفى مقدمة هـــذه الأخطار فى الشرق الأدنى يأتى خطر التتار . بالإضافه إلى الخطر الصليبى ، الذى كان موجودا من قبل ، فضلا عن الأخطار التى هددت دولة المماليك من جانب النوبة جنوبا والتركمان[1] شمالا وسنتناول بالدراسة الدور البطولـى لسلاطين المماليك من خلال جهادهم المتواصل ضد الأعداء المتربصـــين بالأمة الإسلامية مسلطين الأضواء على الدور البارز لسلاطين المماليك فـــى إحياء شعيرة الجهاد . فكان لابد لهم من الإستعداد للعدو عملا بقـــول الله تعالى " وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُـــونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُـــوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ[2] "

تكوين جيش قـــوى :-

قامت الدولة المملوكية على نظام حربى فريد حيث يتلقن المملوك فنـــون الفروسية وهو فى سن مبكرة بالطباق وهوبمثابة المدرسة الحربية فى ذلك الوقت فضم الجيش المملوكى جنودا مدربة تدريبا عسكريا جيدا . فسار الجيـــش المملوكى فى ذلك العصر من أقوى الجيوش عددا وقوة . بحيث تغلب علـــى أكبر جيوش الأرض كالصليبين والمغول ، حتى عرف الجيش المملوكى دائمـــا

---

(١) انظر : د . ابراهيم حسن سعيد : البجرية فى عصر سلاطين المماليك ص ٥ دار المعرف ١٩٨٣ .

(٢) سورة الانفال ايـــة رقـم ٦٠ .

بالجيش أو الجيوش المنصورة فكان له دور بارز في جهادهم المتواصل وكانت حياتهم سلسلة من حلقات الجهاد المتواصلة فكانوا بحق كما قال عنهم المؤرخون إنهم كانوا داوية الإسلام (١) . وإلى جانب الأخطار الخارجية كانت هناك أخطار داخلية . كانت توصف بالدولة الناشئة وهي الصراع على السلطة بين المماليك والأيوبية الذي جعل الملك الناصر يبدي التعاون مع التتار.

وفي ذلك بلاء عظيم . فكان لابد لهم من توحيد الجبهة الإسلامية حتى يتسنى لهم مواجهة الأعباء ومن الله على مصر بقائد عظيم هو السلطان سيف الدين قطز الذي استطاع أن يوحد صفوف الجنود ويخمد المنازعات عن السلطة وبذلك أصبحت الجبهة الإسلامية في استعداد لمواجهة الأعداء .

أولاً : الجهاد ضد التتار :-

تعرضت الأمة الإسلامية لهجمات شرسة من قبل التتار وعن خطورة ذلك العدو يقول ابن الأثير " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارهاً لذكرها . فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب يعني الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمي لم تلدني ، وياليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً . إلى أن حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجزي نفعا فنقول هذا يتضمن ذكر الحادثة

---

(١) انظر د حامد غنيم ابو سعيد : الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبين ج ٣ ص ٣١ .

العظمى والمصيبة الكبرى التى عفت الأيام والياليى عن مثلها . عمت الخلائق وخاصة المسلمين فلو قال قائل : "إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلهم لكان صادقا . كأن التواريخ لم تضمن ما يقاربها وما يدانيها "[1] حيث دخلت جيوشهم بغداد تفتك بأهلها دون التفرقة بين صبى أو امرأة أو شيخ ، أما من بقى من القتل فقد أسر حتى بلغ عدد القتلى حوالى ثمانى مائة ألف قتيل[2] . وسقطت الخلافة العباسية بقتل الخليفة العباسى على أيدى المغول .

بدايه الصراع بين المماليك والمغول :-

كان العدو المغولى[3] له أطماع توسعية فى العالم بصفة عامة والعالم الإسلامى بصفة خاصة فبعد استيلائه على بغداد سعى للإستيلاء على مصر والشام . فأرسل هولاكو إلى الملك المظفر قطز خطابا مضمونه "إلى المظفر قطز الذى هو من حبسى الترك الذين هربوا من سيوفهم . فإننا جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه فسلموا إلينا تسلموا من قبل أن تندموا

---

(١) أبن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٩ص٣٢٦ دار الفكر بيروت .

(٢) أنظر د . حامد زيدان صفحة من تاريخ الخلافه العباسية فى ظل دوله المماليك ص ١٤ .

(٣) المغولى : أو المغل قبيله من التتر كانت تقيم حول بحيره بتيغال (أوبكال) فى جنوب سيبريا وتاريخهم القديم سقيم . لانهم لم يظهروا الا بظهور جنكيز كان فى أوائل القرن السابع الهجرى " جرج زيدان تاريخ التمدن الاسلامى ج٤ ص١٣٨ .

وقد سمعتم بأننا أضربنا البلاد وقتلنا العباد . فلكم منا الهرب ولنا منكم الطلب . فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم . فإن أنتم لأمرنا طعتم فلكم مالنا ولنا مالكم . وإن خالفتم هلكتم فلا تهلكوا أنفسكم بأيديكم ، فقد أعذر من أنذر فعجلوا بالجواب قبل أن تضرب الحرب بنارها .

وترميكم بشرارها فلا بقى لنا مقصد سواكم . (١) والسلام " وكان الكتاب بصحبة أربعة رسل فلما سلم المظفر قطز الكتاب تغير تغيرات شديدة وأمر بتوسيط (٢) الرسل الاربعة فوسطوا وأمر السلطان بجمع الأمراء وقادة الجيش وحثهم على القتال ورغبهم فيه .

وذكرهم بما لحق بالأقاليم الإسلامية التى اجتاحها المغول من القتل والنهب والدماء والحريق (٣) . ودعاهم إلى نصرة الإسلام والجهاد فى سبيل الله دفاعا عن المسلمين وحرماتهم وخوفهم من عقاب الله إن هم ولوا الأدبار أمام عدوهم . فتأثروا بقوله وجدوا بالبكاء وتحالفوا على الإجتهاد فى قتال التتار .

---

(١) انظر القرمانى : تاريخ الاول واثار الاول ص ١٩٨ عالم الكتب بيروت

(٢) القوسيط : هو أن يضرب الشخص بالسيف ضربة لقطعة نصفين ، وكان هذا النوع من الاعدام شائعا فى العصور الوسطى " مفترج الكروب جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٣) المقديزى : السلوك جـ ١ ص ٤٣٠ القاهرة ١٩٧٠ .

معركة عين جالـوت :-

شهدت (عين جالوت) التي تقع من بيسان ونابلس معركة من أخطـــــر معارك التاريخ حيث التقى المسلمون بقيادة السلطان قطز مع التتار فـــــي ١٥ رمضان سنة ستمائة وثمانٍ وخمسين هجرية الموافق سنة ألف ومائتـــين وستين ميلادية وأنتصر فيها المسلمون على أعدائهم ومزقوا شمل المغـــول كل ممزق وكان المغول خصما عنيدا قويا حتى قبل أن كتبغا قائد الجيـــش المغولي تحول أثناء المعركة إلى قطعة من اللهب بسبب القصب . وقـــد أظهر المسلمون شجاعة منقطعة النظير . فكان ذلك إلا نتصار ثمرة جهـــود مشتركة من القادة والأمراء والجنود .

ولعل خير دليل على ذلك حرص السلاطين على الجهاد في سبيـــل الله بأنفسهم فيذكر العيني عن السلطان سيف الدين قطز في موقعـــة عين جالوت أنه لما كان في المعركة قتل جواده ولم يجد أحداً في الساعـــة الراهنة من الوشاقية[1] فترجل وبقي كذلك واقفا على الأرض ، ثابتا في محـــل المعركة وموضع السلطنة من القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرســـه وطلب من السلطان الركوب ، فامتنع السلطان ورد قائلا " ما كنت لأحـــرم المسلمين نفعك ، ولم يزل كذلك حتى جاءت الوشاقية فركب ، فـــلام بعض الأمراء وقال يا قطـز لما لم تركب فرس فلان ؟ فلو كان رآك بعـــض الأمراء لقتلك . وهلك الإسلام بسببك فقال أما أنا فكنت أذهب إلى الجنـــة

---

(١) الوشاقية : الاوشقية او الاوحقية جمع أوشاق . أوجاق : فرقه مـــن خدم السلطان عملها ركوب الخير والتسير والرياق صبحى الاعـــش جـ ٥ ص ٤٥٤ "

وأما الإسلام فله رب لايضيعه قد قتل فلان وفلان وعدد خلقا كثيرا من الملوك فلن يضيع الله الإسلام .[١]

نتائج معركة عين جالوت :-

١ - تبدو أهمية هذه المعركة على وجه الخصوص ، إذا ماتصورنا أنها جاءت بنتيجة عكسية وأنتصر فيها المغول ، إذ لسقط معقل للإسلام في فلسطين ومصر[٢] ، خصوصا وأن قوى الشر الصليبية كانت تقف بالمرصاد للمسلمين وأبدت التحالف مع المغول في سبيل القضاء على الإسلام والمسلمين .

٢ - قضى هذا الإنتصار على الفكرة التي كانت سائدة عند الدولة المسيحية بأن الجيش المغولي جيش لا يقهر .

٣ - حفظت مصر وأثارها من الخراب الذي كان طبيعة النصر المغولي .

٤ - أعادت الوحدة بين مصر والشام[٣] تحت حكم المماليك . وهي الوحدة التي زاق مرارها الصليبيون .

٥ - إعادة الثقة إلى نفوس المسلمين الذين أصبحوا يشكون في وجود قوة على الأرض تستطيع مواجهة المغول . ولكن ماذا كان موقف السلطان سيف الدين قطز وهو منتصر على أقوى جيش في العالم .

---

(١) أنظر العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان جـ ١ ص ٢٥٩ ، تحقيق محمد محمد أمين - الهيئة المصرية العامة لكتاب س ١٩٨٩ .

(٢) انظر / د . فؤاد عبد المعطي : المغول في التاريخ من ضكيز كان الى هولكو ص ٢٠٩ القاهرة ١٩٦٠ .

(٣) أنظر / د . أحمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامي جـ ٥ ص ٢٥٠ ، مكتبة النهضة س ١٩٩٠ .

هل نسب النصر إلى نفسه أو سعى فى الأرض فسادا وتغطرسا . كلا إنما نجده بعد أن أصبحت هزيمة المغول أمرا مؤكدا قد نزل فر ساجدا ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين [1] شكرا لله تعالى عملا بقوله تعالى (لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) [2]

مسيرة الجهاد ضد المغول بعد عين جالوت :-

واصل السلطان الظاهر بيبرس راية الجهاد بعد السلطان قطز وكانت سياسته مع العدو واضحة،فقد وصله رسل أيغا معهم مكاتبات ومشافهات ، فمن جملة المشافهات أنت مملوك بعت بسيواس فكيف يسمح لك أن تحالف ملوك الأرض واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا فاعمل لنفسك على وصالحه السلطان أيغا فلم يلتفت إلى ذلك ولا عده شيئا . بل أجاب عنه معلنا سياسته مع ذلك العدو بكلمة أضاءت سجل التاريخ وظلت شاهدة على عظمة سلاطين المماليك فى الدفاع عن البلاد الإسلامية . فقال لرسله " أعلموه أنى من ورائه بالمطالبة ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخلفية، وسائر أقطار الأرض [3] وترجم بيبرس ذلك الكلام إلى واقع ملموس . حيث تحطمت فى عهده أسطورة الشبح المغولى وأخذ الإسلام ينتشر بين هؤلاء الغزاة

---

(١) انظر / د . حامد غنيم ابو سعيد الجبهة الاسلاميه فى عصر الحروب الصليبين جـ ٣ ص ٢٧٠ .

(٢) سورة ابراهيم آية (٧) .

(٣) انظر / من كثير البداية والنهاية جـ ١٣ ٢ ص ٢٥٤ دار الفكر العربى .

وبالتالى استعادت الجبهة الإسلامية ثقتها في قدرتها على مواجهة التحديات بل وفرض إرادتها على العدو .[1]

موقعة حمص :-

وفى أثناء عهد السلطان الملك المنصور قلاون أخذت جيوش التتار تجتاح الحدود السورية ثانية مرتكبين نفس الفظائع التى ارتكبوها منذ عشرين عاما . وكان مما شجعهم على ذلك الخلاف الذى ساد فى صفوف الأمراء المماليك . وطبقا لحسابات العدو المغولى القاصرة التى لا تدرك إلا المقاييس المادية اعتقدوا أن الصراع على السلطة بين سنقر الأشقر الذى خرج على طاعة الملك المنصور قلاون ونادى بنفسه سلطانا على دمشق . سيتفق معه على قتال الجيش المصرى ولكن أمراء المماليك خاطبوه بروح الإسلام وقالوا له إن العدو داهمنا وماسببه إلا الخلاف الذى بيننا وما ينبغى هلاك الإسلام فتأثر وتراجع عن موقفه ومنع جنده من محاربة المصريين وقد ارتكب جيوش المغول جرائم لا تحصى فأحرقوا ما يجلب من جوامع ومدارس فتملك أهل دمشق الهلع والفزع وهاجر منهم خلق كثير إلى مصر والتقت جيوش المغول بجيوش السلطان قلاون الذى كانت تتكون من جنود مصر والشام وفريق كثير من الأكراد والتركمان حيث نودى فى الجيش الأقوى للجهاد فلبى النداء جموع كثيرة وحضر إلى ميادين القتال المسلمون من كل أرجاء الأرض . وكان اللقاء بالقرب من

---

(١) أنظر / د . حامد غنيم أبو سعيد : الجبهه الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية جـ ١٣ ص ١٧١ .

حمص وكانت معركة شديدة وقاتل المماليك قتالاً مشرفاً وحملوا على جيش المغول حملة صادقة أنتهت بهزيمتهم هزيمة ساحقة . وقتل كثير منهم وكانت هزيمة المغول عند حمص لا تقل فى أهميتها عن هزيمة عين جالوت سيما أن المغول كانوا فى ذلك الوقت يراسلون البابا وملوك أوربا يطلبون التعجيل لإرسال حملة صليبية تقضى على سلطنة مصر .

ولتفادى هذه المؤامرة أبرم قلاون اتفاقا دفاعيا مع أمراء كشتالة وصقلية[1] فبهذه السياسة الحكيمة إلى جانب بطولتهم الرائعة فى حمص استطاعوا كسر شوكة المغول .

وعاد المغول يهددون الدولة المملوكية من جديد فى عهد برقوق[2] . فكان رد السلطان برقوق رداً عنيفاً وذلك يتضح لنا من رده على رسالة وصلته من ملك التتار وهذه مقتطفات من نص الخطاب بإنشاء ابن العمرى ونشحته بعد البعدين والإصدار " نحن خيولنا برقية وسها منا يمانية وسيوفنا شديدة المضارب ذكرها فى المشارق والمغارب . إن قتلناكم

---

(١) انظر / د . محمد رفعت ومحمد حسونه معالم تاريخ العصور الوسطى المطبعة الاميرن بيولاق .

(٢) برقوق : بن أبيض العثمانى الحيركسى اشتراة الاتابكى بلبغا العمرى ومات بلبغا وهو من صغار مماليكة وانما سمى برقوق لجحوظ عينية ونتقلت به الاحوال أن صار أمير مائه مقدم وكان اتابكا الملك الصالح وليس للصالح سوى الاسم لصغر سنن وخلع الصالح وتولى هو مكانه فى التاسع عشر من رمضان س ٧٨٤ هـ " القرمانى اخبار الاول وآثار الاول ص ٣٠٨ .

فنعمة البضاعة وإن قتلنا فبيننا وبين الجنة ساعة[١] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢] وفى ذلك تصميم على مواصلة مسيرة الجهاد حتى النصر أو الشهادة .

ثانيا : الجهاد ضد الصليبيين :-

سنتحدث فيما بعد حديثا مفصلاً عن الجهاد المماليك ضد الصليبيين ونود أن نشير هنا فى تلك الكلمة الموجزة أن أنتصار المماليك فى موقعة عين جالوت حقق لدولة سلاطين المماليك الناشئة مكانة لا يستهان بها فى نفوس المعاصرين ، مما دعم نفوذها[٣] فى بلاد الشام وألقى على أهلها مهمة إتمام ما قام به صلاح الدين الأيوبى . ونجح سلاطين المماليك فى استرداد ما أغتصبه الصليبيون وقد كان فى وسع المماليك أن يعجلوا بطرد الصليبيين ، ولكن عاملا مهما أتاح لهم البقاء فى الشام حوالى أربعين سنة بعد سقوط بيت المقدس[٤] وذلك بسبب زحف العدو المغولى على العالم الإسلامى . فبعد هزيمة المغول فى عين جالوت تحول المماليك إلى الصليبيين وأهم سلاطين المماليك الذين كان لهم دور بارز فى الجهاد ، ضد الصليبيين السلطان الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل بن قلاوون

---

(١) المرجع السابق القرمانى ص ٣٠٨ .

(٢) سورة ال عمران ايـة ١٦٩ .

(٣) انظر د / على سيد على : القدس فى العصر المملوكى ص ١٥٨ دار الفكر للدراسات والنشر .

(٤) انظر د / احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٧٨٥ ، مكتبة النهضة س ١٩٩٠ .

حيث استطاعوا أن يجلوا الصليبيين من بلاد الشام .

ثالثا : جهاد المماليك مع البقايا الصليبية في الشرق :-

المماليك وأرمينيا الصغرى :-

كان العداء بين المماليك والأرمن في حقيقة أمره سلسلة من العداوات بين القوى الإسلامية والمسيحية زمن الحروب الصليبية نفسها . وطلب الظاهر بيبرس أن يكون نهر جيحون حدا بين المسلمين والأرمن وأن يسلم كل ما هو جنوبي نهر جيحون من الحصون والبلاد . فأجاب الأرمن وتسلم المسلمون جميع البلاد التي جنوبي نهر جيحون والمذكور ومنها حموص وتل حمدون وقويدى ومرعشي وغيرها . ولكن آلت أمور هذه البلاد إلى الأرمن عند دخول (قازن) ملك التتار [1] .

فقاد حركة الجهاد السلطان المنصور قلاوون الذي هاجم إياس في سن ١٢٨٣ وأنزل الهزيمة بالأرمن عقب الهزائم المتلاحقة التي نزلت بهم على أيدي الأرمن وأبرمت معاهدة ودفع اللأرمن جزية سنوية فحدث أن قطعوا تلك الجزية في عهد الأشرف خليل بطل عكا حتي بادر بإرسال رسالة إلى هيثم الثاني ملك أرمينيا يخبره بفتح عكا .

وطلب منه أن يعتبر بما جل بعكا وإلا ندم حيث لا ينفع الندم [2] . وعزم

---

(١) انظر / بن الغدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٤ ص ٢٧ .

(٢) انظر د / سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الاسلامي في العصور الوسطى جـ ٢ ص ٢٦٢ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٦ م .

على استعادة الأراضي التي نزلوا عنها للمماليك . وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون أرسل حملة س ١٣٢٦ م وظلت هذه الحملة تعمل في الأراضي الارمنية حتى وافق الارمن على التنازل عن جزء كبير ومع ذلك لم تنقطع غزوات المغول في أرمينيا الصغرى بقية القرن الرابع عشر حتى استطاع الأشرف شعبان أن يقضي قضاء تاما على دولة أرمينيا [١] وبعد القضاء على أرمينيا أصبحت قبرص أهم المعاقل الصليبية وأقواها . حيث أصبحت ملجأ للشراذم الفارين الصليبين كما أصبحت هذه الجزيرة ملجأ للقراصنة ولأعداء الإسلام وهاجمت سواحل مصر فزحف جند السلطان (بارسباى) وهاجموها واستولوا عليها س ٨٣٠ هـ - س ١٤٢٦ م وبقيت الجزيرة تحت حكم مصر تدفع الجزية [٢] وحاول أهل جزير (رودس) مناصرة أهل قبرص ولكن تصدى لهما السلطان حقمق وهاجمها ثلاث مرات مما أسكتها وبذلك نجد ام المماليك كان بمثابه الدماء الجديدة التي تتطلبها الجبهة الإسلامية في ذلك العصر . فكانوا مدافعين عن البلاد الإسلامية دفاعا عظيما حيث اشترك السلاطين في هذه المعارك وجاهدوا جنبا إلى جنب مع جنود فكانوا قدوة صالحة للعامة مما جعلهم يشاركون في تلك المعارك تطوعا وجهاداً في سبيل الله .

---

(١) المراجع السابق .

(٢) انظر د / أحمد شلبي : موسوعة التريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٦٠ مكتبة النهضة س ١٩٩٠ .

الفصل الثالث

الفتوحات الإسلامية فى العصر المملوكى

وأثرها فى خدمة الدعوة الإسلامية

" الفصل الثالث "

الفتوحات الإسلامية فى العصر المملوكى وأثرها فى خدمة الدعوة الإسلامية

تتصف دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام بأنها دولة حربية نشأت وترعرعت وليدة الحروب الكثيرة التى هددت منطقة الشرق الأدنى فى العصور الوسطى واستخدمت هذه الدولة بقاءها ونظمها من ذلك الجهاد المسلح ضد الأعداء[1]. فقد تعرضت الأمة الإسلامية فى ذلك الوقت لأخطار عديدة أهمها الخطر المغولى وقد سبق الحديث عنه فى فصل لاحق والخطر الصليبى . حيث استولى الصليبيون على بلاد الشام وثغور دمياط وأقاموا مستعمرات لهم فى قلب الدولة الإسلامية . وقد انشغل المماليك فى الدفاع عن البلاد الإسلامية فى بادئ عهدهم ضد المغول وما أن انكسرت شوكة المغول حتى تحولت راية الجهاد إلى العدو الصليبى وسنتناول بالدراسة أهم الفتوحات الإسلامية فى عصر سلاطين المماليك وأثرها فى الدعوة الإسلامية . فقد كانت حياة سلاطين المماليك مسخرة لخدمة الدعوة الإسلامية خلال حماية الدولة الإسلامية واستردادها ما اغتصبه الأعداء :

أولا : أهم الفتوحات الإسلامية فى عهد الظاهر بيبرس :-

الملك الظاهر بيبرس البندقدارى كان ملكا جليلا عظيما مشهورا بالشجاعة والإقدام[2] فتح قلعة البيرة، الكرك، والشوبك، وقيسارية وقلعة الهوى . وصفد وقلعة بانياس، ويافا، والشقيف، ومدينة إنطاكية، وسائر حصون الإسماعيلية، وحصن

---

(١) انظر د / محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك جـ ٤ ص ٥ القاهرة ١٩٦٠ .

(٢) القرمانى : تاريخ الدول وانار الاول ص ١٩٩ .

الأكراد وحصن عكار وكنبول والمصيصة وتدل كثرة الفتوحات في عهد الظاهر بيبرس على علو خلقه وحبه للإسلام وأهله . فقد قال عنه صاحب كنز الدر :

" إن بيبرس كان ملكا هاما شجاعا مقداما لا يرهب الموت كثير الحيل حسن السياسة ، جميل التدبير . ميمون الحروب مؤيد العزم[1] وقال عنه أحد المؤرخين " إن عهد بيبرس كان كعهد الرشيد وصلاح الدين أحد عصور الإسلام الذهبية" وكان الظاهر بيبرس حريصا على نشر الدعوة الإسلامية من خلال فتوحاته فشيد المساجد وأقام بها الدعاة . وسنورد أهم الفتوحات في عهده .

١ - فتح قيسارية الشام :

نازلها الملك الظاهر بيبرس وحاصرها لمدة ستة أيام وفتحها في منتصف شهر جمادى الأولى ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م واستولى عليها المسلمون وهرب الصليبيون وأسلموا القلعة[2] بما فيها وهي أول فتوح الملك الظاهر رحمه الله وكان فتح (قيسارية) مملا على جانب كبير من الأهمية . فقد أخلى الفرنجة عن حصن منيع على الساحل الجنوبي لبلاد الشام وكان يهدد المواصلات الإسلامية بين مصر والشام[3] وبذلك استراح المسلمون من تهديد الفرنجة لتجارتهم .

---

(١) انظر ابن ايبك : كنز الدر ج ٨ ص ٢١٤ .

(٢) انظر / العيني : عقد الجمان ج ١ ص ٣٦٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٨٩ .

(٣) انظر / طه التلجي : مملكة صفد في عهد المماليك ص ٤٦ .

٢ - فتح أرسوف[١] :

نزل السلطان على أرسوف فى مستهل جمادى الآخرة من نفس السنة واشتد هجوم المعسكر بالسهام والمجانيق وضيقوا عليهم . فما أحس الفرنج إلا أن خالطهم المسلمون . وكان فتحا مباركا فقد حضر فى هذا الفتح جمع كبير من العباد والزهاد والفقهاء . ولم يعد فيها خمر ولا شيء من الفواحش فكانت النساء الصالحات يسقين الماء فى وسط القتال[٢] وفى ذلك نفع عظيم للدعوة الإسلامية . حيث إن الدعوة إلى الله بالقدوة الحسنة أعظم شأناً فى نفس المدعوين من الكلمة . واشترك القائد (بيبرس) فى هذا العمل بنفسه فقد سجل التاريخ لبيبرس أنه فى أثناء الحصار الذى فرضه على أرسوف الصليبية فى سنة ٦٦٣هـ . كان ينقل الأحجار بنفسه ويمشى بمفرده فى يده ترس تارة فى السرب وتارة فى الأبواب التى تفتح ليرمى[٣] العدو من فوق الستائر .

٣ - فتح صفد[٤] :

نزل الملك الظاهر بيبرس بجيشه على صفد فى شعبان سنة ثلاث وستين

---

(١) ارسوف بالفتح ثم السكون ، وضم السين المهملة وسكون الواو . والفاء مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا وكان بها خلعه من المرابطين منهم أبو يحيى زكريا بن ناقع الأرسوفى وغيره وهى فى الاقليم الثالث (ياقوت الحموى) جـ ١ ص ١٥١ : ١٥٢

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٩ القاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٣) انظر د / حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٧٢ .

(٤) صفد : صفد بالتحريك ، والصفد : العطاء وكذلك الوثاق وهى من جبال لبنان (ياقوت الحموى) : معجم البلدان جـ ٣ ص ٤١٢ .

وستمائة هجرية وضايقها بالزحف وآلات الحصار فسلموا الباشورة[١] واستولى عليها وفتحها في التاسع عشر من شعبان سنة ٦٦٣ هـ وعمر فيها جامعاً[٢] وكان سلاطين المماليك يصطحبون مع الجنود الصالحين والعلماء وحضر قاضي قضاة الحنابلة بدمشق[٣] ذلك الفتح . وسادت الروح الإسلامية واشترك العامة تطوعا في سبيل الله . وأحسنوا القتال مما سهل فتحها .

تعمير صفد :

تعرضت صفد إلى أضرار جسيمة خلال فترة الحصار التي انتهت بعودتها للحظيرة الإسلامية . فنظر الظاهر بيبرس إلى مستقبل تلك القلعة في رحلة جهاده ضد الصليبيين فكان موقعها الحصين دافعا له ليجعل منها قاعدة حصينة في المنطقة تشد أزره في صراعه مع الفرنجة[٤] . ومركزاً تشن منه الهجمات على البلاد الخاضعة للصليبيين . ووصل السلطان لتعمير صفد في أواخر رجب سنة ٦٥٦ هـ . وفور وصوله قام بتقسيم عمارتها على الأمراء وأخذ نصيباً وافراً لنفسه ولمماليكه . وما أن فرغوا من العمارة حتى أمر بحفر خندق من

---

(١) الباشورة : هنا سد من التراب لمنع وصول الخيالة والرحالة والسهام الى مواضع المحاربين مع تجمع على بواشير الملوك : جـ ١ ص ١٥٠ .

(٢) انظر / العيني : عقد الجمان جـ ١ ص ٢٢٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) انظر / د حامد غنيم : الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٧٥ .

(٤) انظر : طه التلجي الطراونه . مملكة صفد في عهد المماليك ص ٥٢

حولها . شارك السلطان العمل فيه أيضا ويذكر المقريزى لنا دور(بيبرس)فى نشر الدعوة من خلال فتحه لصفد . فقد كتب على القلعه بعد فتحها مصورا إنجازاته فى تلك القلعة " ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون(١) " أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون(٢) " .

وأمر بتجديد هذه القلعة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها وخلصها من أسر الفرنج الملاعيين ، وردها إلى أيدى المسلمين ، ونقلها من أخوة الكفر إلى أخوة المؤمنين وأعادها إلى الإيمان . كما بدأ بها أول مرة وجعلها للكفار خسارة وحسرة واجتهد وجاهد حتى بدل الكفر بالإيمان والناقوس بالآذان والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها(٣) وفى ذلك وصف جامع الدور بيبرس فى خدمة الدعوة الإسلامية من خلال فتوحاته .

٤ - حملات تأديبية :

انطلاقا من قول الله تعالى " ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون(٤) " توجه الملك الظاهر بيبرس من دمشق حيث التقى بجنوده العائدين من غزوة سيس . لما نزل على " قارا " بين دمشق وحمص . أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل منهم جماعة جزاء وفاقا . واقتصاصا منهم

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٥ .

(٢) سورة المجادلة من الآية رقم ٢٢ .

(٣) انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٦٣ القاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٤) سورة البقرة آية ١٧٩ .

لأنهم كانوا نصارى يسعون فى الأرض فساداً ويسرقون الصبية المسلمين ويبيعونهم للفرنج[١] فكانت الحملة التأديبية إرهاباً وردعاً للعدو وتعظيما لحرمة الدم المسلم.

٥ - فتح إنطاكيـــــــة :

يروى المؤرخون أن بيبرس هاجم إنطاكية[٢] بثلاث قوات إحداها بقيـــادة الأمير بدر الدين الخازندار . اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين إنطاكية والبحر والثانية بقيادة الأمير عز الدين بيغان وسدت الممرات بيـــن قليعية والشام . لمنع وصول إمدادات من أرمينيا الصغرى فى حين أخذت القوة الرئيسية بقيادة بيبرس نفسه تجاه المدينة حيث التجأ إلى الخديعة ليبعـــد الأسطول الإنطاكى عن ميدان المعركة فهاجم طرابلس أولا فأسرع إلى نجدتها بوحمنـــد الثالث بأسطوله وفى هذه اللحظة رحل بيبرس عن طرابلس . وتمكـن بذلك من الإستيلاء على إنطاكية ٦٦٦ هـ / ١٢٩٨ م[٣] . فلم يكن يجـــازف سلاطين المماليك بقواتهم . وإنما برعوا فى وضع الخطط العسكرية . ونجحـوا فى ذلك نجاحاً بارعاً . إلى جانب روح الجهاد التى كانت القوة الروحيـــة التى جعلتهم يحققون ذلك النجاح فى فتوحاتهم .

---

(١) انظر / ابن الفداء : المختصر البشـــر جـ ٤ ص ٤ .

(٢) انطاكية : بالفتح ثم بالسكون والياء مخففة بلد عظيم ذو سور عظـــيم وشكل البلد تنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مـــــع الجبل داخل السور قلعة مبنيه (معجم البلدان جـ ١ ص ٢٦٧) .

(٣) انظر / د على ابراهيم حسن : البحرية فى عصر سلاطين المماليـــك ص ٢٥٣ النهضة المصرية ١٩٦٧ .

٦ - فتح حصن الأكراد وحصن عكار والقرين :

توجه الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام . ونازل حصن الأكراد في التاسع من شعبان سنة ٦٦٩ هـ . وجد في حصاره واشتد القتال عليه وملكه بالأمان في شعبان من نفس السنة . ثم رحل إلى حصن عكار ونازله في السابع عشر من رمضان من هذه السنة . وجد في قتاله وملكه بالأمان في رمضان المذكور[١] وقيل في فتح عكار .

يا مليك الأرض بشر ... اك فقد نلت الإرادة

ان عكارا يقينا ... هي عكا وزيادة

وكان هذا الحصن شديد الضرر على المسلمين[٢] فأراحهم الله بفتحه وفيها تسلم قلعة القليعة وبلادها من الإسماعيلية . واستولى على حصن القرين وتسلم نواب الملك الظاهر بيبرس ما تأخر من حصون الاسماعيلية[٣] . وبذلك استطاع الظاهر أن يقضى على فرقة الاسماعيلية التى كانت بلاء على الاسلام والمسلمين . فقد كانت حياته رحمه الله سلسلة من الجهاد المتواصل فقد ذكر أنه فتح فى عهده أربعة حصونا كانت مع الفرنج[٤] .

---

(١) انظر ابن الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٤ .

(٢) انظر العينى عقد الجمان جـ ٢ ص ٧٧ الهيئة المصرية العامة سنة ١٩٨٩ .

(٣) انظر المرجع السابق .

(٤) انظر الذهبى : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٥٠ .

ثانيا : أهم الفتوحات الإسلامية فى عهد السلطان قلاوون :

الملك السلطان سيف الدين قلاوون كان ملكا عظيما والخير ما شهد بـــه الأعداء . حيث يقول السيد وليم موير عن السلطان قلاوون "أنه كان ملكـا عاقلا ، جوادا محبا للخير وقد حمـد لـه مؤرخـوا عصره لينه وحلمه وعدلـــه والحق أنه جدير بهذا الحمد"(١) .

وأهم فتوحاته : فتح المرقب وفتح طرابلـــس .

١ - فتـــــح المرقب :

خرج السلطان الملك المنصور من دمشق بالعساكر المصرية والشاميـــــة متجها إلى المرقب(٢) ونازلها فى أوائل ربيع الأول ٦٨٤ هـ وهو حصن فى غايـة العلو والحصانة . ولشدة حصانته لم يطمع أحد من الملوك الأوائل فى فتحه(٣)! ويروى لنا الملك المؤيد فى تاريخه هذا الحدث فيقول "إنى حضرت حصـــار الحصن المذكور وعمرى إذ ذاك نحو اثنتى عشرة سنة وهو أول قتال رأيته وكنـــت مع والدى . وطلب أهل الحصن الأمان فأجابهم السلطان وتسلمه فى الساعـة الثامنة من يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول من سنة أربع وثمانين وستمائة(٤) . وأمر بإبقاء عليه لحصانته ومناعته وربت فيه حامية قوية من المماليك . واستـــرد قلاوون حصن مرقية من الصليبيـــن(٥) .

---

(١) انظر / وليم مـــوير : تاريخ دولة المماليك البحرية فى مصر ص ٦٠ : ٦١ المعارف - القاهرة .

(٢) المرقب : بلد وقلعة حصينه تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينـة بانيـــاس .

(٣) العينـــى : عقد الجمان جـ ٢ ص ٣٣٨ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

(٤) ابن الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٤١ .

(٥) انظر/ د السيد عبد العزيز سالم . طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ص ٢٨٦ .

٢ - فتـــــح طرابلـــس :

يحاول الظاهر بيبرس مهاجمة طرابلس سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م وبعـــد أن استولى على حصن الأكراد قصد السلطان بيبرس طرابلس وأحاطوا بطرابلس إحاطة الهالات بالأقمـــار . وعقد هدنة مع حكام طرابلس لمدة عشر سنـــوات إلا أن السلطان قلاوون شرع فى فتح طرابلس بسبب نقض حكام طرابلس الهدنـــة التى كانت مبرمة بينهم وبين السلطان بيبرس وذلك **بأنهم اعتدوا على التجـــار** المسلمين رغم تعهدهم بألا يتعرضوا له ولا يقطعوا الطريق على مسافـــــر . فصار قلاوون إلى طرابلس على رأس قوات من الفرسان والمشاة[٢] فوصل إليها يـــوم الجمعة فى مستهل ربيع الأول سنة ٦٨٨ هـ وحاصرها حصاراً شديداً فلما كان يوم **الثلاثاء الرابع من** جمادى الآخرة فتحت طرابلس بالقوة وقد كانت طرابلس فى أيدى الفرنج من سنة **ثلاث** وخمسمائة[٣] هجرية إلى أن فتحت فى سنة ثمانى وثمانمائـــة وستة هجرية . وأحدث سقوط طرابلس فى أيدى المسلمين دويا هائلاً . خفقت له قلوبهم فى سائر أنحاء العالم الإسلامى ، وكتبت البشائر إلى الآفاق بهـــذا النصر المبين[٤] . وعزم الملك قلاوون على فتح عكا حيث جهز جيشه ولكن المنيـــة

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٢ ص ٣٣٨ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

(٢) انظر / د . على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٢٥٣ - النهضة المصرية سنة ١٩٦٧ .

(٣) انظر / ابن الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٢٣ .

(٤) انظر / د . السيد عبد العزيز سالم : طرابلس فى الشام فى التاريخ الاســـلامى ص ٢٩٤ .

عاجلته فى الطـــريق . فأكمل المسيرة بعده ابنه الأشرف خليل .

ثالثا : أهم الفتوحات الإسلامية فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون :

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى النجمى الألفى . قتل فى الثالث عشر من محرم ٦٩٣ هـ وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأياما وكان شجاعا عالى الهمة . فتحت فـى عهده عكا والسواحل وقلعة الروم وبـــهنسى ومرعـــش وغير ذلك[١] .

١ - فتح عكـــــــــا :

فى سنة ٨٦٦ هـ - سقط الوجود الصليبى فى إنطاكية وفى سنة ٦٨٨ هـ سقطت طرابلس ومن ثم أصبح الوجود الصليبى فى عكا ، أو فى الجنوب هـــو الغاية التى عدت كل جهود الجبهة الإسلامية موجهة إليه . هذا من ناحيـــة ومن ناحية أخرى . فقد سجل التاريخ عن صليبى عكا . أنهم فى شعبان ٦٨٩هـ ثاروا على التجار المسلمين وقتلوهم[٢] . وعندما وصلت هذه الأنباء إلى السلطان قلاوون وطلب من الصليبين تسليم المجرمين إليه فورا فعقد الصليبيون مجلســا واتخذوا قراراً بتسليم المجرمين إلى قلاوون ليسكن غضبه ولكن ذلك القـــرار تعارض مع الرأى العام المسيحى الذى رفض ذلك القرار بشدة إذاء ضغـــط الرأى العام المسيحى[٣] قدم حكام عكا تبريرات واهية محتواها أن العدوان آتـى

---

(١) انظر / العينى : عقد الجمان ج ٣ ص ٢٠٧ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

(٢) انظر/ د . حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ج ٣ ص

(٣) انظر د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الاسلامى فى العصور الوسطى ص ٩٣٢ - دار الفكـــر العربى ١٣٦٥ هـ .

به صليبيون أجانب . وأن الحكومة غير مسئولة عن ذلك الحادث ولكن هذه الأعذار الواهية لم تكن كافية لتهدئة غضب السلطان قلاوون الذى جهز الجيش لفتح عكا ولكن المنية عاجلته فى الطريق . وهو بذلك يذكرنا بالخليفة المعتصم الذى جهز جيشا من أجل امرأة مسلمة استغاثت به . وأننا فى عصرنا الحاضر لفى أشد الحاجة إلى حاكم مثل هؤلاء الحكام . حيث دماء المسلمين تنتهك فى كل مكان ولا يحرك ذلك هاجسا لدى حكامنا سوى التنديد والاستنكار .

وأخذ السلطان الأشرف خليل على عاتقه مهمة والده فى القضاء على الصليبيين فجهز الجيش ونودى فى دمشق للجهاد فى سبيل الله لفتح عكا فخرج الجميع من العامة والفقهاء والمدرسين والصالحين[1] . ملبين نداء الجهاد ونزل السلطان بجيشه عند عكا فوجدها قد حصنت بسائر العدد والآلات وكانت الفرنج قد استنجدوا بأهل قبرص وغيرها من البلاد وأرسلوا إلى ملوك الإفرنج مع الرهبان والقساوسة مبينين لهم أنه لم يبق حصن من حصون الفرنج يأوون إليه فى جميع السواحل غير هذا الحصن وأنه متى أخذ لا يبقى لسائر الإفرنج مكان يذكرون فيه فأجابوا على طلبهم بتزويدهم بجيش قوى ودارت بينهم وبين المسلمين مناوشات فرأوا من المسلمين ما ليس بحسبانهم فامتنعوا عن القتال وصاروا يدافعون دون أن يهجموا فحاصرها الأشرف خليل وشدد الحصار وقاتل من بها مدة أربعين يوما حتى فتحها عنوة[2] . وقبل قتل ما يزيد

---

(١) انظر / ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٠ دار الفكر العربى .

(٢) البغدادى : الحوادث الجامعة ص ٤٧٠ - المكتبة العربية .

على عشرة آلاف نفس وتسلمها المسلمون بعد أن ظلت فى أيدى الصليبيين مائة عام . وكانت معركة عكا هى الحاسمة فى فصل الصراع بين الصليبيين والجبهة الإسلامية .

٢ - نهاية الصليبين بالشام :

" لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعب فى قلوب الفرنج ، الذين بساحل الشام[١] " فاحتل المماليك مدينة هونين دون مقاومة بعد أن تركها نائب الملك هنرى الثانى وفر إلى قبرص .

أما صيدا فقد فر منها أهلها عند اقتراب الأمير الشجاعى ، فاستولى عليها المماليك ودمروا قلعتها فى سنة ٧٠٢ هـ - سنة ١٢٩١ م . وكذلك احتل المماليك مدينة حيفا وهدموها وبذلك لم يبق للصليبين بالشام سوى موضعين هما انطرطوس[٢] وعثليث . وكان هذان الموضعان تابعين للداوية واستلمت الأولى فى ثلاثة أغسطس والثانية فى أربعة عشر أغسطس سنة ١٢٩١ م سنة ٧٠٢ هـ . وبذلك تكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام وهكذا أزالت دولة الصليبين بالشام وتخلص المسلمون من أولئك الغزاة الغربيين إلى حيث لا رجعة[٣] . وعادت الأراضى الإسلامية إلى أهلها على أيدى

---

(١) ابن الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٢٦ .

(٢) انطرطوس : بلد من سواحل بحر الشام وهى آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص . معجم البلدان جـ ١ ص ٢٧٠ .

(٣) انظر / د . سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الاسلامية صفحة مشرفة فى تاريخ الجهاد الاسلامى ص ٩٣٦ .

سلاطين المماليك الذين حملوا لواء الزعامة فى العالم الإسلامى وأخذوا على عاتقهم مهمة طرد الصليبيين من الأراضى المقدسة التى تعتبر جزءا لا يتجزأ من الشرق العربى وقد تم لهم ما أرادوا فى أقل من نصف قرن من قيام دولتهم[(١)] . والحق كما قال الدكتور عبد المنعم ماجد " أنهم برعوا فى الفنون الحربية ، بحيث كانوا سادة يسودون الممالك وقادة يجاهدون فى سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى[(٢)] " .

ونختم حديثنا عن الفتوحات الإسلامية بإلقاء نظرة إلى ما يترتب على تلك الفتوحات من نتائج .

نتائج الفتوحات الإسلامية فى عصر سلاطين المماليك :

١ - حماية الدولة الإسلامية من التمزق والضعف : أحيا سلاطين المماليك الخلافة الإسلامية فكانت رمزا لوحدة المسلمين . مما جعل لدى المسلمين الإنتماء إلى العالم الإسلامى عامة وليس إلى قطر بعينه وذلك نراه واضحا فى اتحاد المسلمين عند تعرضهم لخطر خارجى . ولعل أصدق تعبير عن ذلك ما حدث فى سنة ٦٨٠ هـ حيث تعرضت الجبهة الإسلامية لهجوم كبير من قبل مغول فارس . وفى هذا الظرف الرقيق برزت الرابطة الدينية كأقوى ما يكون البروز . فقد توافدت إلى الميدان مختلف قوى

---

(١) انظر / د . أحمد شلبى : الحروب الصليبية بدؤها مع مطلع الاسلام واستمرارها حتى الآن . ص ١٩٢ - دار النهضة المصرية سنة ١٩٨٦ .

(٢) انظر / د . عبد المنعم ماجد : طومان باى آخر سلاطين المماليك ص ٢٦ - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨ .

الجبهة الإسلامية من أجل التصدى للغزاة . ومن ناحية أخرى احتشد جمع عظيم من المسلمين فى الجامع الأموى بدمشق . وتضرعوا إلى الله وضجوا وبكوا وحملوا المصحف العثمانى من الجامع إلى المصلى خارج البلد وهم يسألون الله النصر على الأعداء . وفى مصر كان أهلها يفتنون فى صلواتهم وكثرة قراءة صحيح البخارى وأقبل الناس على تلاوة القرآن . وتجمعوا فى المشهد الحسينى وفى المساجد وكثر ضجيجهم ودعاؤهم (١) . فكانت الخلافة هى السياج الحامى للأمة الإسلامية التى تجتمع عليه ويقول الله تعالى " إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (٢) " ويقول أيضا " وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٣) " . وسعى سلاطين المماليك إلى استرداد ما اغتصبه الصليبيون فأعادوا للأمة الإسلامية مجدها فقد أصبحت فى ذلك العصر قوية الشوكة فهابهم ملوك العالم وفى ذلك يذكر لنا ابن تغرى الحوادث العديدة التى تؤكد ذلك بالنسبة للسلطان الظاهر بيبرس منها " أن تواقيعه التى كانت بأيدى التجار المترددين إلى بلاد القبجاق بإعفائهم من الصادر والوارد كان يعمل بها حيث خلو من مملكة باركف خان ومنكوتمر

---

(١) انظر / د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرفة فى تاريخ الجهاد الاسلامى ص ٩٣٢ - دار الفكر العربى ١٣٦٥ هـ .

(٢) سورة النحل آية رقم ١٢٨ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٤٠ .

وبلاد فارس وقارمان[1] . وعندما طلب السلطان قلاوون استلام المجرمين الذين اعتدوا على التجار المسلمين بعكا . كان رد الصليبيين أن عقدوا مجلسا لبحث الأمر ، واقترح مقدم الداوية وهو بمثابة المسئول عن العمليات العسكرية أن يبادر الصليبيون بالقبض عليهم وتسليمهم لقلاوون فورا . فهم يخشون رد فعل السلطان قلاوون لمكانته ونفوذ دولته في ذلك الوقت ونجح سلاطين المماليك في تحرير الأراضي الإسلامية والحفاظ عليها واستبدال شعائر الكفر بشعائر الإسلام . ونتيجة لتلك الإنتصارات أن ألقى الرعب في قلوب الأعداء وخير مثال لذلك بلاد الأرمن حيث ضعفت شوكتهم وسعوا إلى طلب الهدنة مع سلاطين المماليك .

٢ - حماية المسلمين من الفتن : ارتكب الصليبيون الجرائم البشعة ضد المسلمين من قتل وتخريب هذا إلى جانب التضييق على المسلمين في حياتهم مما جعل المسلمين عرضة للفتن . فمن الله على المسلمين بأن وفق سلاطين المماليك في فتوحاتهم فعاشوا في عزة ومأمن على أنفسهم ودينهم .

٣ - نشر الدعوة الإسلامية : شيد سلاطين المماليك المساجد للبلاد التي فتحوها وعينوا الدعاة واهتموا بتصحيح المفاهيم الإسلامية . حيث قد شوهت بمعرفة أهل الصليب والحاقدين على الإسلام فكان من نتائج ذلك

---

(١) ابن تغري - النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٨٢ - المؤسسة المصرية العامة .

أن وجد مسلمون يتشبهون بالفرنجة حتى أنه يذكر أن المسيحى كان يتزوج بمسلمة . فلا حول ولا قوة إلا بالله : فكان ولا بد أن تعاد الموازين إلى نصابها ونشر علماء العصر المملوكى فى ذلك الوقت وهم كثرة الدعوة الإسلامية الصحيحة هذا إلى جانب القدوة الحسنة التى نتجت من سلوك القادة فكانت دافعاً لدخول كثير فى الإسلام . فقد كثر عدد المقبول الذين أسلموا ووفدوا إلى مصر فى عهد بيبرس وأكرمهم وعرفوا بالوافدين (١) وحدث فى سنة ٦٩٤ هـ أن وصل الرحبة جنود كثيرة نحو عشرة آلاف جندى من جنود بيدو ملك التتار طالبين الدخول فى الإسلام فأرسل الملك العادل كتاباً إلى الأمير علم الدين سينجر لاستقبالهم وحسن إسلام هؤلاء القوم على أيدى سلاطين المماليك .

---

(١) انظر / د . أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى - مكتبة النهضة سنة ١٩٩٠ .

الفصل الرابع
أبرز علماء العصر المملوكى
وأثرهم فى نشر الدعوة الإسلامية

" الفصل الرابع "

أبرز علماء العصر المملوكي

وأثرهم في نشر الدعوة الإسلامية

ذخر العصر المملوكي بعلماء نبغوا في مختلف الميادين . وأصبحت مصر في ذلك العصر كعبة العلماء فلقد نبغ فيها طائفة من فطاحل العلماء والأدباء والشعراء .

(فالقلقشندي) صاحب (صبح الأعشى) والأبشيهي صاحب (المستطرف) وابن منظور صاحب (لسان العرب)، وابن هشام النحوي العظيم الذي بلغ من النحو شأنا عظيما ، وابن عبد الظاهر ، وشمس الدين السخاوي صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان ، والصفدي صاحب الوافي ، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين في زمانه ، والعيني المؤرخ والمحدث ابن وصيف .

والمقريزي صاحب الخطط والسلوك ، وأبو الفداء المؤرخ الجغرافي المشهور صاحب تقويم البلدان ، والنويري صاحب نهاية الارب في فنون الأدب ، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) وابن تغرى بردي صاحب النجوم الزاهرة وجلال الدين السيوطي صاحب التآليف الشهيرة في التفسير والعلوم والتاريخ والأدب واللغة . وابن إياس المؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني صاحب بدائع الزهور في وقائع الدهور وأستضافت[1] مصر في ذلك العصر المملوكي جماعة من أئمة العلم والفلسفة في الشرق كالإمام ابن تيميه وابن قيم الجوزية وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون . كما وجد علماء في الطب أمثال ابن أبي أصيبعية صاحب

---

(١) أنظر / راسم رشدي : مصر والشراكسه ص ١٣١ ، ١٣٢ - القاهرة ١٩٤٨ .

كتاب(عيون الأنباء في طبقات الاطباء) وعلى بن النفيس رئيس الأطباء في مستشفى [١] السلطان قلاوون وسنلقى الضوء على أشهر علماء ذلك العصر من خلال دورهم في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال علاقتهم بسلاطين الدولة المملوكية

---

(١) أنظر د / أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٦٤١ - مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

١ ـ العزبن عبد السلام

مولده ونشأته :-

العزبن عبد السلام " هو الشيخ الإمام العلامة عز الدين بن عبد السلام بن أبي القاسم الحسن بن محمد بن المهذب أبو محمد السلمي الدمشقي الشافعي[١] شيخ المذهب ، ومفيد أهله . ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة وكانت وفاته في العاشر من جمادى الأولى من سنة ٦٦٠ هـ وقد نيف على الثمانين ودفن بسفح جبل المقطم ، وحضر جنازته الملك الظاهر بيبرس وخلق من الأئمة .

أثره في نشر الدعوة الإسلامية :-

يعتبر العزبن عبد السلام من العلماء الذين عاصروا الدولتين: الأيوبية والمملوكية وكان سبب خروجه من الشام رحمه الله إنكاره على الصالح إسماعيل تسليمه صفد والشقيف إلى الفرنجة[٢] . وأخرج من بلده بسبب ذلك فقد كان قويا في الحق مجاهدا في سبيل الله لا يخشى في الله لومة لائم

وصار ابن عبد السلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق ثم انتزعهما منه وأقره على تدريس الصالحية . وكان رحمه الله يحث المسلمين في خطبه على الجهاد

---

(١) العيني : عقد الجمان جـ ١ ص ٢٣٨ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .

(٢) أنظر / ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٦ ـ دار الفكر العربي

فى سبيل الله ويهاجم السلاطين إذا رأى منهم منكراً . ويذكر أن السلطان سيف الدين قطز تتلمذ على يديه . وكان نتيجة ذلك أن كان قطز متفانيا فى خدمة الإسلام وأهله .

وللعزبن عبد السلام مواقف بطولية رائعة فقد كان له نفوذ قوى لدى السلاطين . ومن تلك المواقف نذكر : حين أراد الملك المظفر قطز الخروج لقتال التتار بالشام ، وأراد أن يجهز الجيش ولم يجد ما يكفيه . فاحتاج إلى المساعدة بشىء من أموال الرعية . لمواجهة العدو المغولى بقوة تكسر شوكته . فجمع القضاة والفقهاء لاستشارتهم فى هذا وطلب الموافقة على ماعزم عليه . فسكت من كان فى المجلس إلا الشيخ عز الدين الذى قال "إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على الحاكم قتالهم وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ماتستعينون به على جهادكم بشرط . ألّا يبقى فى بيت المال شىء من السلاح والسروج الذهبية والغضية والكبابيش المزركشة وأسقاط السيوف والغضة وغير ذلك وتبيعوا مالكم من الحوائص الذهبية واللآلئ النفيسة . فيقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه وتتساووا هم والعامة أما أخذ الأموال من العامة مع بقايا فى الجند من الأموال وللآلات الفاخرة فلا "(١) .

وأصبحت تلك الفتوى نموذجاً للقياس فيما بعد العصر المملوكى وبلغ من مهابة الشيخ عز الدين فى قلوب السلاطين والأمراء أنه لما توفى سنه ٦٦٠ هـ حضر الجنازة خلق كثير وحضرها الظاهر بيبرس والعلماء ،

---

(١) ابن تغرى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص٢٧٢ ـ المؤسسة المصرية العامه .

فقال لبعض خواصه " اليوم استقر أمرى فى الملك "[١] لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه لانتزع الملك منى . هذا إلى جانب إسهامه فى خدمة الدعوة بعلمه لقد جمع علوماً كثيرة وأفاد ودرس وله مصنفات حسان منها . التفسير ، واختصار النهاية ، والقواعد الكبرى والصغرى وكتاب الصلاة والفوائد الموصلية[٢] وغير ذلك .

---

(١) انظر / السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٤ - مطبعة الموسوعات.

(٢) انظر العيينى : عقد الجمان جـ ١ ص ٣٣٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .

٢-ابن تيمية

مولده ونشأته :-

وهو " أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن على بن عبد الله ، شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس ابن أبى المحاسن . شهاب الدين بن أبى البركات مجد الدين الحرانى الأصل والمولد الدمشقى الدار والوفاة الحنبلى المعروف بابن تيمية [(١)] الإمام العلامة الحافظ الحجة فريد دهره مولده بحران فى يوم الإثنين عاشر شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة من الهجرة .

نشأ الإمام فى بيت علم وفضل وتربى فى أحضان مدرسة الحديث السكرية بالقصاعين بدمشق التى كان يرأسها والده وقد أنعم الله عليه بسرعة الحفظ وقوة الذاكرة والذكاء الخارق والنبوغ المبكر [(٢)] .

(ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ) [(٣)] فحفظ القرآن الكريم منذ حداثة سنه واستمر حافظاً له إلى أن فاضت روحه إلى ربها حتى أنه تلاه فى سبحت القلعة بدمشق وختمه ثمانين ختمه وشرع فى الحادية والثمانين [(٤)] حتى وصل إلى قوله تعالى (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) [(٥)] . فأكمل القرآن بعد وفاته الشيخان عبد الله بن المحسب وعبد الله الزراعى .

---

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى جـ ١ ص ٣٥٨ .

(٢) أنظر د / دكتور محمد رباب : محاضرات فى تاريخ الدعوة الاسلاميه ص٨ أسوط

(٣) سورة الجمعة آية ٤ .

(٤) انظر ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٤ ص١٣٨ - دار الفكر العربى .

(٥) سورة القمر آية ٥٤ ، ٥٥ .

أثره في خدمة الدعوة الإسلامية :-

١ - سعة علمه :-

كان إماما في التفسير وما يتعلق به عارفاً بالفقه ، فيقال إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره ، وكان عالما باختلاف العلماء ، عالما في الأصول والفروع والنحو واللغة وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية [١] .

وقد أثنى عليه جماعة من كبار العلماء ، من ذلك ماكتبة القاضي كمال الدين بن الزملقاني [٢] على كتاب (رفع الملام عن إلائمة الأعلام) تأليف ابن تيمية مالفظه : تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة الأوحد الحافظ والمجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، قدوة الأئمة علامة العلماء . . الخ [٣] وقد وُجِدَ بخطهٔ أنه قال اجتمعت فيه شروط الإجتهاد على وجهها [٤] وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والتركيب والتقسيم

---

(١) انظر / ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٣٨ - دار الفكر العربي .

(٢) الزملكاني : قاضي القضاه ذو الفنون جمال الاسلام كمال الدين أبو المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الزملقاني الانصاري السماكي الدمشقي الشافعي قاض قضاه دمشق ولد في سنه سبع وستين وستمائة وتوفي سنه سبع وعشرين وسبعمائه ابن تغري ، النجوم الزاهرة ص ٢٧٠) - المؤسسة المصرية العامة .

(٣) انظر ابو المحاسن : المنهل الصافي جـ ١ ص ٣٦١ .

(٤) انظر / ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٤٠ ص ١٣٧ دار الفكر العربي

وكتب على تصنيف لابن تيمية هذه الأبيات :-

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلت عن الحصر

هو حجة لله قاهرة ... هو نيئنا المجوبة الدهر

هو آية فى الخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر

وتعلم ابن تيمية العلوم التى كانت رابحة فى عصره .

ولم يترك باباً من الأبواب إلا أتقنه . ولقد قال فيه أحد معاصريه قد ألان الله له العلوم التى كانت رائجة فى عصره ولم يترك باباً من الأبواب إلا أتقنه . وإذا سئل عن فن من العلم ظن الرائى والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن . وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه ، استفادوا فى مذاهبهم منه . مالم يكونوا عرفوه قبل ذلك . ولا يعرف أنه ناظر أحدا فانقطع منه ، ولا تكلم فى علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم من غيرها ، إلا فاق فيها أهله والمنسوبين إليه [1] فقد كان رحمه الله قل أن سمع شيئا إلا حفظه ، ثم اشتغل بالعلوم فدرس وتخرج على يديه علماء أجلاء أفادوا الدعوة ومن أشهرهم ابن القيم الجورية

٢ - جهاده ضد التتار :-

لم يقف ابن تيمية عند جهاده فى العلم وإنما انتقل إلى ميدان القتال ولم يتردد فى أن يكون فى طليعة المجاهدين بنفسه للتتار وهنا ظهر

---

(١) انظر المرجع السابق جـ ١٤ ص ١٣٧ .

ابن تيمية العالم العامل ، المؤمن القوى ، المجاهد فى سبيل الله . فكانت له مع العدو مواقف محمودة . وكان لهذه المواقف آثارها العظيمة فى إذكاء الروح الدينى [١] والوطنى لدى السلاطين والأمراء وعامة الناس . فعندما هرب الجنود إلى مصر فارين . وصار التتار على أبواب دمشق فجمع ابن تيمية العلماء ، واتفق معهم على ضبط الأمور ، وأن يذهب على رأس وفد منهم وقد ذهب الشيخ مع الوفد ، والتقى بقازان ملك التتار وقائدهم وقد كسا الله الشيخ حلة من المهابة . والإيمان والتقى . وقد ذكر الذين شاهدوا اللقاء إنه ظل يحدث السلطان والسلطان مصغ لما يقول شاخصا إليه + وتحدث كلاما قويا كان فيه مصلحة للمسلمين .

وفى سنه ٧٠٠هـ اشتد الخطر على الشام من هؤلاء التتار فأصبح الناس ما بين هارب ، ومستسلم . فخرج الشيخ فى مستهل جمادى الأولى والناس يمتلكهم الهلع والرعب إلى نائب الشام . فحثهم على الجهاد وقوى من عزيمتهم ووعدهم النصر على الأعداء إن هم صبروا وأعدوا العدة للقاء وتلا قوله تعالى " ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ " [٢] وبات مع الجنود ليله ثم عاد إلى دمشق وسأله النائب والأمراء أن يسافر إلى مصر يستحث السلطان على نصرة الشام . فأجتمع

---

(١) انظر / د محمد يوسف موسى : ابن تيمية ص ١٣٦ الهيئة المصرية العامة لكتاب س ١٩٧١ .

(٢) سورة الحج اية ٦٠ .

بسلطان مصر والأمراء وقال لهم " إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا لـــه سلطانا يحميه " ثم قال لوقد رأنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهلـــه وجب عليكم النصر . فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم دعاياكم وأنتم مسئولـــون عنهم [١] وقوى جأشهم . فكان لهم النصر في تلك الكرة واشترك مع السلطان فـي موقعة شقحب في ميدان القتال سنة ٧٠٢ هـ فهكذا كانت علاقته بالملوك يطيع في غير معصية . وينصح ويرشد في غير غلظة أوعنف إلا إذا تقاضاه الحـــق أن يقول في صرامة وقوة [٢] فقد كان رحمه الله مثلاً يحتذى به وقدوة صالحـــة في العفو عند المقدرة . مما كان له الأثر في هداية الكثير بين على يديـــه فقد استفتاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون في العلماء والقضاة الذيـــن ناصروا خصمه . فأفتى بأن دماءهم حرام عليه . وأنه لا يحل إنزال الأذى بهم فقال له السلطان : إنهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً . فقال الشيخ الكريـــم كلمة أضاءت جنبات التاريخ : من آذانا فهو في حل ومن آذى الله ورسولـــه فالله ينتقم منه . وأنا لا أنتصر لنفسي . ولم يكتف الشيخ بالإمتناع عـــن الإفتاء والفتوى بعكس ما يريد السلطان . بل أخذ يخاطبه في العفـــو عنهم . فقال قاضي قضاة المالكية ابن مخلـوف :

ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفـــح عنا وحاج عنا [٣] . فهكذا تحقق قول الله تعالى جليا واضحا " وَلَا تَسْتَوِي

---

(١) انظر د / محمد دياب محاضرات في تاريخ الدعوة الاسلامية اسيوط .

(٢) انظر/ د محمد محمد ابو زهره : ابن تيميه حياته وارءه الفقهية ص١٣٨ دار الفكر العربـــي .

(٣) انظر/ ابن كثير: البداية والنهاية حـ ١٤ ص ٥٤ - دار الفكر العربي .

الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (١) . ولقد لقي ابن تيمية في سبيل الدعوة إلى الله الأذى ولكنه صبروا حتسب أجره عند الله . فكانت من عباراته المشهورة يوم منعوا عنه الكتب والورق والقلم في سجن دمشق ٧٢٦هـ "إن حبسي خلوة وإخراجي من بلدي سياحة وقتلي شهادة" (٢)

---

(١) سورة فصلت آية ٣٤ .

(٢) انظر / صلاح عزام : الحبه ومسئوليه الحكومه الاسلامية لابن تيميه .

٣ - ابن حجر العسقلانـــى

مولـده ونشأتـــه :-

هو أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن حجر الشافعى العسقلانـــى الأصل المصرى المولد . القاهرى الدار والمنشأ والوفاة ولد على أرجـــح الأقوال فى الثالث والعشرين من شعبان سنة ٧٧٣هـ أول مارس ١٣٧٢ م واستقر أجداده فى مصر التى انتقلوا إليها من عسقلان بأرض فلسطين[١] ولعظيم شأن حياته فقد وضح تلميذه العالم المؤرخ شمس الدين السنماوى كتابـــا حافلاً بمراحل حياتـــه .

أثره فى خدمة الدعوة الإسلاميـــة :-

يتبوأ ابن حجر العسقلانى فى جدارة واستحقاق مركز الصـــدارة بين المحدثين والحفاظ فى العالم الإسلامى منذ بداية القرن التاســـع للهجرة . وهو مركز لم يستطع احتلاله أحد ممن عاصروه وزاحموه ولا من جاءوا بعده وشغلوا أنفسهم بهذا الضرب أو ذاك من الدراسة ، فأتفقوا علـــى أنه حامل رايتهم والمقدم منهم والمهتدى برأيـــه .

---

(١) انظر / ابن حجر العسقلانى : انباء الغمر بانباء العمر جـ ٧ تحقيـق د / حسن حبشى - القاهـره س ١٩٧١ .

وابن حجر متعدد الجوانب من حيث الثقافة ، فقد أسهم في الحديث والفقه والأدب والتاريخ ، وطبعت مؤلفاته صغيرها وكبيرها ومجالس إملائه كما يشهد تلاميذه وغير تلاميذه ممن عاصروه في مصر والشام وغيرهما من بلاد العالم الإسلامي . بطابع الدقة وتحكيم العقل والمنطق فهو . لا يورد خبراً إلا بعد أن يكون انتظمت له عدة أسباب الدراسة والبحث والتمحيص والمقارنة . فقد كان رحمه الله أمينا في علمه مخلصا للدعوة الإسلامية . فكانت جهوده مثمرة " وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ "(١) فقد ذاعت شهرة مؤلفاته الضخمة في الحديث والفقه والتراجم وأشهر كتبه فتح الباري في شرح البخاري ، وهو في ستة عشر مجلداً بمقدمته ولو لم يكن له غيره من المؤلفات لكفى للتنويه بعلو مكانته . على قول معاصريه والمنتفعين به من المحدثين حتى الوقت الحاضر .

وكتاب (إتحاف المهرة بأطراف العشرة) في ثمان مجلدات . وكتاب (تهذيب الكمال) في مجلد ضخم . وتنوعت مؤلفاته فشملت التاريخ ومن أشهر مؤلفاته في التاريخ :(كتاب الدرر الكامنة) في المائة الثامنة . وكتاب أنباء الغمر بأنباء العمر .

وصار هو المعول عليه في هذا الشأن في سائر أقطار الأرض ، وقد وة الأئمة علامة العلماء حجة الأعلام ، انتفع به الطلبة وحضر دروسه جماعة من علماء عصره وقضاة قضاته (٢) .

---

(١) سورة البقره من الايه ٢٨٢ .

(٢) انظر / ابو المحاسن : المنهل الصافي جـ٢ ص ١٧ : ٢٧ .

هذا إلى جانب دوره فى خدمة الدعوة من خلال سلوكه - فقد كان رحمه الله يحسن لمن يسىء إليه ويتجاوز عمن قدر عليه .

فكان ذا وقار ومهابة . وسعى العلماء وكانت أماينهم أن يصلوا إلى رتبته فى الحديث فقد قال عنه السيوطى "إنه لما حج شربت من ماء زمزم لأمور منها أن أصل فى الفقه إلى رتبه سراج الدين البلقينى . وفى الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلانى"(١)

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ١٥٧ - مطبعة الموسعات .

٤ - جلال الدين السيوطـــى

مولـده ونشأتـــه :-

هو عبد الرحمن بن الكمال ابن بكر بن محمد بن سابق الدين ابـــن الفخر عثمان بن الناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجـــــم الدين أبى الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الديـــن الهمام الخضيرى الأسيوطى . حفظ القرآن وهو دون ثمانى سنين . وحفـــظ العمدة ومنهاج الفقه والأصول وألفية ابـــن مالك [١] واشتغل بالعلم مبكـــرا . وسافر السيوطى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب [٢] والتكـرور

ثمار علمـــه :-

قال السيوطى " رزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقـه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء . لا علـــى طريقة العجم وأهل الفلسفـــة [٣]

وقد ظل السيوطى طوال حياته مشغوفا بالدرس مشتغلاً بالعلم يتلقـــاة من شيوخه ويلقنه لتلاميذه أو يحرره فى الكتب والأسفار .

وأما كتبه . فقد أحصى السيوطى منها فى كتابه نحو من ثلاثمائة كتـــاب فى مختلف العلوم . فما زالت مؤلفاته مصدراً غنيا للباحثين . وكـــــان

---

(١) انظر السيوطى : حسن المحاضره جـ ١ ص ١٥٦ مرجع سابـــق .

(٢) المرجع السابـــق جـ ١ ص ١٥٧ .

(٣) المرجع السابـــــق .

رحمه الله في حياته الخاصة مثلاً يحتذى به فقد كان على أحسن ما يكون عليه علماء ورجال الفضل والدين عفيفا كريماً ، غنى النفس متباعدا من ذوى الجاه والسلطان ولا يقف بباب أمير أو وزير ، قانعا برزقه . وله مواقف مع سلاطين المماليك تدل على نزاهته . فقد ذكر أنَّ السلطان الغورى أرسل إليه هدية وكانت ألف دينار وخصيا ، فرد الدنانير ، وأخذ الخصى ثم أعتقه ، وجعله حارساً في الحجرة النبوية . وقال لرسول السلطان . لا تعد تأتينا قط بهدية ، فإن الله أغنانا عن ذلك [1] فهكذا كانت صفات علماء ذلك العصر .

---

(١) انظر د / على احمد الخطيب / مجلة الازهر عدد مايو ١٩٩٣ / ذو القعده ١٤١٣ هـ ص ٢ .

٥ - بدرالدين العيني

مولده ونشأته :-

بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف ابن محمود الشهير بالبدر العيني . ولد في بلدة (عينتاب) بين حلب وانطاكية في السابع عشر من رمضان سنة اثنين وستين وسبعمائة من الهجرة ، ونشأ بها نشأة أبناء زمانه ، فتلقى العلوم على أيدى والده القاضي شهاب الدين أحمد وعلى غيره من الشيوخ

أثره في خدمة الدعوة الإسلامية :-

نال البدر من رفعة المنزلة وعلو الدرجة أيام السلطان برسباى ما لم ينله في أيام غيره من السلاطين . فكان يترجم له تاريخه (عقد الجمان) إلى التركية ، ويعلمه أمور الدين . ولمعرفة مكانة البدر ودوره في خدمة الدعوة الإسلامية ما قاله السلطان الأشرف برسباى " لولا البدر العيني لكان في إسلامنا شيء " وقد عد الحافظ ابن حجر في عداد شيوخه برغم تقاربهما في السن .

وقد ترك لنا البدر العيني رصيداً ضخما في المصنفات في جميع العلوم المعروفة في زمانه ، حتى قيل إنه لا يقارن به واحدا من أهله عصره في كثرة مصنفاته . إلّا أنْ يكون الحافظ ابن حجر . فصنف البدر العيني في علوم التفسير ، وعلوم الحديث ، وعلوم اللغة ، والفقه والتاريخ والمنطق والعروض[1] ولا شك في أن هذا التراث الذى خلفه لنا البدر العيني

---

(١) انظر / العيني : السيف المهند في سيره الملك المؤيد ص ٤ .

يعطى فكرةً واضحةً عن القيمةَ العلمية التى كانت له فى عصره ومـــــــدى ما كان يتمتع به من سعة الإطلاع والمقدرة الفائقة فى البحث والتنقيـــــب، ولقد أثنى عليه كثير من العلماء ممن عاصروه أو جاءوا بعده . فقيـــــل عنه ، إنه شيخ العصر وأستاذ الدهر ، ومحدث زمانه المتفرد بالروايـــة والدرايةَ . وقيل عنه أيضا . كان إماماً عالماً ، حافظاً للتاريخ واللغـــة وكثير الإستعمال لها مشاركاً فى الفنون لا يمل من المطالعةَ والكتابـــةَ . ويكفى الإشارةَ إلى مؤلفه الضخم فى التاريخ "عقد الجمان فى تاريـــخ أهل الزمان" حيث إن البدر كان شاهد عيان للأحداث ومشاركـــا فيها . وتعتبر مؤلفاته مصدرا غنيا للباحثين إلى عصرنا هذا . وسجـــل ذلك العصر مملوء بالعلماء والدعاةَ الذين لهم مواقف عظيمةَ عنـــد السلاطين . وهم أكثر من أن تحصيهم عددا .

الباب الثالث

الدولة المملوكية بين الشبهات والسقوط

ويشتمل على فصلين :

* الفصل الاول : مزاعم ومفتريات حول الدولة المملوكية
* الفصل الثانى : نهاية الدولة المملوكية

الفصل الأول

مزاعم ومفتريات حول الدولة المملوكية

" الباب الثالث "

الدولة المملوكية بين الشبهات والسقوط

(الفصل الأول)

" مزاعم ومفتريات حول الدولة المملوكية "

ينال المستشرقون والحاقدون على الإسلام من كل دولة رفعت راية الجهاد ضد المعتدين ، حيث إن الدولة المملوكية كانت من الدول الإسلامية التي رفعت راية الجهاد ضد الصليبيين والتتار . ودافعت عن البلاد الإسلامية بقوة حتى قضت على الأعداء لذا فهي لم تسلم من مفترياتهم فمن تلك المفتريات إتهامهم المماليك بالديكتاتورية والسكر والمجون والغريزة وباضطهاد هم لأهل الذمة وسنحاول أن نتعرض لتلك المفتريات مبينين مدى صحتها :-

أولاً : إتهام المماليك بالديكتاتورية[1] :

وفي ذلك يقول الدكتور أحمد شلبي "إنه في إحدى المحاضرات التي ألقاها أستاذ التاريخ قال " إن المماليك كانوا يحكمون مصر حكما ديكتاتوريا(٢) ونحن نرد على هذه الفرية بأنه لا بد عند الحكم على عصر من العصور لا بد أن نأخذ في الإعتبار خصوصية المجتمع وخصوصية العصر ، فإنه لمن الظلم الفاحش أن نقارن الحركة العلمية في العصر المملوكي مثلا بالحركة العلمية في عالمنا المعاصر . وكذلك لا يمكننا مقارنة نظم الحكم في العصر المملوكي بعالمنا المعاصر . ولكن الشبيء والمنطقي أن نقارن بالعصور القريبة له .

---

(١) الديكتاتورية : لفظ مأخوذ عن اللاتينين ما يتعهد به (النظام السياسي الذي بمقتضاه يستولي فرد أو جماعة على السلطة المطلقة دون اشتراط موافقة الشعب (٢) انظر / د . أحمد شلبي - موسوعة التاريخ الاسلامي جـ ٥ ص ٢٢٢ مكتبة النهضة ١٩٩٠ م .

ولو تتبعنا ذلك المنطق لوجدنا أنّ المماليك كانوا أكثر ديمقراطية من غيرهم فلو نظرنا إلى ملوك الإنجليز من القرن الثالث عشر مثل الملك هنرى الثانى وابنه الملك جون . حيث خلع الإبن أباه بمؤامرة خائنة . وتسلط على الأمراء ورجال الكنيسة[1] وتاريخ تلك الدول ملئ بالأحداث المظلمة التى توضح أن الديكتاتورية كانت الأصل السائد فى تلك العصور . فما أشد الخطأ عندما نحكم على عصر سابق بعلم عصر حاضر . ومع ذلك لو نظرنا إلى حكم المماليك برؤية معاصرة لا تضح لنا أن حكمهم لم يكن ديكتاتوريا بالمعنى المعاصر للديكتاتورية . حيث تمتع علماء ذلك العصر بنفوذ وسلطات واسعة لا يمكن أن تتاح لهم فى ظل نظام ديكتاتورى . ونشير إلى بعض المواقف الرائعة لعلماء ذلك العصر . فنرى العز بن عبد السلام . حيث يروى لنا السيوطى عنه فى حسن المحاضرة أن الشيخ تصدى لبيع أمراء الدولة الأتراك وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحراراً وأنّ حكم الرق مستصحب عندهم والشيخ مصمم بألا يصح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا وبذلك تعطلت مصالحهم وكان نائب السلطنة من جملتهم فاستشار غضبا فاجتمعوا وأرسلوا إليه . فقال الشيخ نعقد مجلسا وننادى عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين . وقد حاول السلطان منع الشيخ من هذه الفتوى فأبى وتمسك . وقد وصل الأمر إلى ترك الشيخ مقر عمله . ولكن العامة من خلفه يؤيدونه وأخيرا رضخ السلطان لأمر الشيخ وجمع كل الأمراء فى القلعة بأمر الشيخ ثم عرضوا فى مزاد ونادى الشيخ فغالى

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

من ثمنهم حتى امتنع الحاضرون عن المزايدة فى الثمن . فتقدم السلطان فدفع ثمنا أزيد من ماله الخاص لا من مال بيت المال حتى اشترى جميع الأمراء المماليك وأعتقهم لوجه الله فصاروا أحراراً وما قبضه الشيخ وزعه على الفقراء وطلاب العلم وأقام مكاتب لتعليم القرآن والخط وعلوم اللغة[1] . وليت الأمر انتهى عند ذلك بل أن الشيخ رفض مبايعة الظاهر بيبرس سلطانا وقال له ما أعرفك إلا مملوكا للبنقدارى. فأنت عبد لا تصلح لتولى الأمر فالشرط أن يكون ولى الأمر حرا . وذلك أن الرق يمنع من انعقاد الولاية[2] ولكن من أعتق يجوز له أن يكون من أهل الولاية الكاملة وهى عدة شروط نجملها " الإسلام والحرية والذكورة والبلوغ والعقل " وأثبت الظاهر أنه أعتق وأنه أصبح حرا فبايعه الشيخ بعد أن تأكد من حريته وتلك الحرية والمكانة العظيمة لهؤلاء العلماء التى جعلتهم يخوضون فى قضية تخص شخص السلطان لدليل واضح على أن روح الإسلام كانت هى السائدة فى ذلك العصر وهى التى جعلت سلاطين المماليك يتقبلون ذلك الأمر بصدر رحب . وكان للشيخ محيى الدين النووى المتوفى فى عام ٦٧٦ هـ مواقف مشهودة مع السلطان بيبرس ومراسلات إليه فيها التوجيه الرشيد والنصح الصريح[3] وقد حدث أن تعرضت البلاد فى بعض عهود الركود إلى أزمات مالية حادة اختل بسببها ميزان الموارد

---

(١) انظر د . / محمد دياب : محاضرات فى تاريخ الدعوة الاسلامية

(٢) انظر د . / سليمان محمد الطماوى : نظام الحكم والادارة فى الاسلام ص ٤٣٣ دار الفكر العربى .

(٣) راجع / هذه المكاتبات فى السيوطى جـ ١ ص ٦٧ : ٧١ - مطبعة الموسوعات .

والمنصرف فاضطرت الدولة إلى الضغط على مصروفاتها والدعوة إلى التقشف ومحاربة البذخ والإسراف مع زيادة الموارد الإنتاجية ولكن ما السبيل إلى تنفيذ تلك السياسة ؟ لم يكن من سبيل أمام وزير الدولة فيعينك في سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م إلا الإستعانة بأهل العلم[١] وتم اجتماع بدار العدل تشاور فيه مع قاضي القضاة والقضاة وكبار الأحرار . يحضره السلطان ومناقشة ما أحدثته نساء السلطان وجواريه من قمصان طوال تخب أذيالها على الأرض ، بأكمام سعة الكم منها ثلاثة أذرع وأبطل لبس الإزار البغدادي وحدد ثمن الإزار الحرير بألف درهم . وأن خف المرأة وسرموزتها بخمسمائة درهم . ناقش المجتمعون أثر هذه الموديلات الجديدة في الغلاء الذي تعاني منه طبقات الشعب وأن نساء القاهرة تشبهن بنساء السلاطين في تغيير زيهن ومجاراتهن في ملبسهن على حين تجد طبقات العامة مشقة كبرى في الحصول على ضروريات الحياة من ملبس ومأكل وأفتى المجتمعون بأن هذه من الأمور المحرمة التي يجب منعها[٢] وطبقت تلك الفتوى بالقوة على الجميع فهل تستطيع حكومة ما مهما بلغت من القوة أن تتصدى لحاشية نساء السلطان ورغباتهن ؟ وأن تناقش في حضرة السلطان أمراً حساساً كقمصان نسائه هل تستطيع حكومة أن تفعل ذلك دون مساندة علماء الدين الإسلامي .

---

(١) انظر ابن بطوطة " الرحلة جـ ١ ص ١٤ - ط . القاهرة ١٩٦١ .

(٢) انظر / د . نظير حسان سعداوي : صورة مظلة من عصر المماليك ص ٦٤ .

أليس هذا مظهراً من مظاهر قوتهم والحق يذكر أن سلاطين المماليك أتاحوا للعلماء القيام بدورهم العظيم في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال مشاورتهم قبل الإقدام على أعمال هامة . وكان للعلماء والتجار أيضا المشاركة الفعالة في شئون الحكم مما ينفي الدكتاتورية من حكم المماليك وإن كنا لا ننفي وجود بعض الممارسات الديكتاتورية التي ترجع إلى سلاطين ضعاف لا يؤثرون على عموم سلاطين المماليك . الذين تملكوا نواصي العرب والعجم على قول الرحالة ابن بطوطة ففتحوا أبواب القاهرة لجميع الوافدين أفراداً أو جماعات على تباين جنسياتهم ومذاهبهم السياسية ومعتقداتهم الدينية[1] . فأوى إليها ملوك فقدوا عروشهم وسكنها لاجئون سياسيون اضطهدوا في أوطانهم وحل بها حجاج عابرون إلى الأراضي المقدسة ونالوا الرعاية والحماية وهاجر إليها المهاجرون من المغل بقصد الإستيطان .

ثانيا : اتهام المماليك بالسكر والمجون والعربدة :

اتهم كتاب التاريخ وخاصة المستشرقين سلاطين المماليك بالسكر والمجون والعربدة . هؤلاء السلاطين الذين كانوا يعتبرون أن الجهاد الإسلامي ضد أعدائهم من الفرنج والتتار وغيرهم فريضة من الواجب إقامتها . أي أنها لم تكن غائبة كما هي الآن في عالمنا المعاصر كما أنهم كانوا يرون أن الخلافة من الواجب إقامتها لأنها هي التي تجمع شمل المسلمين وهي كالسياج الواقي

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٦٤ .

للأمة . وحينما لاحظوا ضعف سلطان الخلافة ، قاموا بتدعيمها ومساندتها إيمانا منهم أن الخلافة جزء من الاسلام[١] ولذلك نجدهم يتبعون استراتيجية الإندماج التى نادى المماليك بها إلى توسيع الدولة المصرية لتشمل سوريا وأرمينيا والأناضول وتكوين جبهة إسلامية قوية فى مواجهة قوى الشر المتحالفة وانطلاقا من قوله تعالى " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا "[٢] وقامت هذه الدولة التى اتهم سلاطينها بالسكر والمجون والعربدة بإنقاذ الحضارة من خطر التتار حيث قامت الجيوش المصرية بقيادة ملكها المظفر قطز بالمبادرة ولقاء العدو القادم واستطاع الجيش المصرى فى عين جالوت أن يلحق الهزيمة بالجيش التترى ولأول مرة انهزم جيش التتار وتبعتهم الجيوش المصرية تذيقهم بعض ما أذاقوا الآمنين . فقتلوهم وشردوهم وصاروا يقتلون ويأسرون . ولم يكتف المصريون بإجلائهم من دمشق . فلما أجلوهم بقيادة الظاهر بيبرس من المدن السورية والثغور كانت هذه أول مرة تنكسر فيها تلك الصخرة القوية التى جاءت من الصين هاوية على رؤوس الناس وخاصة المسلمين ولا يعلم إلا الله أين كانت تقف لو لم يؤيد الله المصريين بنصره فى عين جالوت ومن المؤكد أنها كانت قاصدة أوربا . ولذلك يقول المؤرخون إن مصر عندما حطمت تلك الصخرة لم ينقذ الإسلام وحده بل أنقذت المسيحية أيضا وبل

---

(١) انظر د / جمال عبد الهادى : أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ الطريق الى بيت المقدس ج ١ ص ١٦٣ - الوفاء للطباعة والنشر .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٠٣

أنقذت الحضارة من أن يقضى عليها أولئك الوحوش[١] . فليعرف أولئك الذين تطاولوا على سلاطين الدولة المملوكية أنهم حموهم بصنيعهم أمام التتار من الفناء . هؤلاء القوم الذين اتهموهم بالسكر والمجون قاموا برحلة جهاد طويلة أمام الصليبيين فتمت مواصلة أعمال صلاح الدين بعد هدنة طويلة انتهت بتصفية الإمارات الصليبية المتبقية والإستيلاء على عكا آخر معقل للصليبيين . فكان سلاطين المماليك بحق حماة الدولة الإسلامية . فيذكر أن بيبرس عندما طلبوا منه الهدنة رد عليهم بمنتهى الجفوة وقال لمرسلهم رد واما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فإني لا أقبل غير ذلك ثم طردهم من مجلسه مما يدل على تصميمه على القتال[٢] . ثم لو أننا نظرنا إلى عهد المماليك في مصر . وقيس هذا العهد بما وصلت إليه الخدمة الإجتماعية في انجلترا أو روسيا ؟ إننا ندع الإجابة على هذا التساؤل للوثيقة التاريخية التي أثبتت فيها " وحجة وقف مستشفى قلاوون " فقد جاء في هذه الحجة ما يلي :-

" أنشئ هذا البيمارستان لمداواة المرضى من المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المترفين والفقراء المحتاجين بالقاهرة وضواحيها من المقيمين بها والواردين عليها وعلى اختلاف أجناسهم وتباين أمراضهم وإصاباتهم . يدخلون جموعا ووحدانا وشيبا وشبابا ويقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداوتهم لحين برئهم وشفائهم ويصرف ما هو معد فيه للمداواة ويغرق على البعيد والقريب والأهل والقريب من غير اشتراط لعوض من الأعواض ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف وما تدعوا حاجة المرضى إليه من سكر جريد أو خشب على ما يراه

---

(١) انظر / د . محمد محمد أبو زهرة : الامام ابن تيمية حياته وعصره وآراؤه الفقهية ص ١١٥ - دار الفكر العربي .

(٢) انظر / د . أحمد مختار العبادي : تاريخ دولة المماليك البحرية ص٤٧ .

مصلحة ، أو لحف محشوة قطنا وطراريح محشوة بالقطن . فيدخل لكل مريض من الفرش والسرر على حسب حاله وما يقتضيه مرضه عاملاً في حق كل منهم بتقوى الله وطاعته باذلا جهده وغاية نصحه فهم رعيته وكل راع مسئول عن رعيته ويباشر في المطبخ بهذا البيمارستان ما يطهى للمرضى من دجاج ولحم ويجعل لكل مريض ما طبخ له في زبدية خاصة به من غير المشاركة لمريض آخر ويغطيها ويوصلها لكل مريض إلى أن يتكامل إطعامهم ويستوفي كل منهم غذاءه وعشاءه وما وصف له بكرة وعشيا . ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه من الأطباء المسلمين الذين يباشرون المرضى مجتمعين ومتناوبين ويسألون عن أحوالهم وما يجد لكل منهم من زيادة مرض أو نقص ما ويكتبون ما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء أو غيره في " دستور ورق " ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالبيمارستان مجتمعين متناوبين ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها . ومن كان مريضا في بيته .. وهو فقير . كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاجه من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها ، مع عدم التضييق في الصرف (١) .. ألخ هذه حجة مستشفى قلاوون التي أملتها الروح الإسلامية من سبعة قرون والتي تدل على تمسك سلاطين المماليك بالشريعة الإسلامية وتدل أيضا على التقدم العلمي الواضح في عزل المرضى عن بعضهم البعض خشية من انتشار العدوى في وقت كانت أوربا وقتئذ أقطاراً لا تعرف غير قوانين الغابة (٢) فهل يعقل أن

---

(١) انظر / د . محمد محمد أمين الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

(٢) انظر / د . محمد الغزالي : ليس من الاسلام ص ٢٧ - مكتبة وهبة .

نتهم عصرا بأكمله بالمجون نتيجة لحوادث معدودة وإن كان استند البعض إلى زيادة الإضطرابات الداخلية . في دولة المماليك البرجية . ولكن المؤرخين الذين يعتد بهم ، أجمعوا على أن حكم بعض ملوك الشراكسة كان مثلا يحتذى به في النزاهة ، والسهو على راحة الرعية ونشر العلوم والمعارف ، حتى كان الناس يبكونهم لفجيعتهم ومن هؤلاء الملوك العظام برقوق والأشرف برسباى وقانصوه الغورى وطومان باى . وأيك لو جمعت عدد السنين التى حكم خلالها هؤلاء لوجدتها تربوا على المائة عام من مجموع السنوات التى حكم خلالها ملوك الشراكسة وهو مائة وخمسة وثلاثون عاما . فلقد جاء السلاطين المماليك الوفود من سماليك المشرق والمغرب ومن العرب والعجم ومن الدول الإسلامية ومن قارات أفريقيا وأوربا وآسيا (٢) . حقا لقد غدت القاهرة حاضرة الدنيا في عهدهم .

ثالثاً : اتهام السلاطين المماليك باضطهاد أهل الذمة :

يزعم المستشرقون ومن سار على منوالهم أنّ أهل الذمة اضطهدوا في العصر المملوكى . وفى الواقع أن معاملة سلاطين المماليك لأهل الذمة كانت مستمدة من الروح الإسلامية ملتزمين العدالة تجاه غير المسلمين عملا بتعاليم الدين الإسلامى . فقد تمتع أبناء الأقليات الدينية سواء من اليهود والنصارى بممارسة

---

(١) انظر / د . راسم رشدى : مصر والشراكسة ص ٤٨ .

(٢) انظر / د . نظير حسان سعداوى صور ومظالم من عصر المماليك ص ٦٤ .

كل المهن والحرف التى مارستها المسلمون ومن ناحية أخرى فإن الوثائق تشير بوضوح إلى أن اليهود والنصارى فقد تملكوا العقارات فى شتى أنحاء البلاد إما عن طريق البيع والشراء وإما عن طريق المواريث . كما تدل الوثائق على أن اليهود والنصارى كانوا يتعاملون مع المسلمين فى عمليات البيع والشراء فى حرية تامة فى ظل القرآن الكريم الحاكمة آنذاك[1] ورغم ذلك استشهد أهل الذمة فى ذلك العصر بميولهم وتواطنهم مع التتار ضد المسلمين . مما جعل الملك الظاهر بيبرس والذى استشهد بالعدل والأخلاق الحميدة لم يعاملهم معاملة تنطوى على العطف والرعاية بسبب ما كانوا يقومون به من المناوشات والفتن . فقد حدث أن أكثر الحريق بالقاهرة أثناء اشتغاله بفتح أرسوف سنة ٦٦٣هـ وأشيع أن النصارى هم الذين أشعلوا هذه النيران . فلما عاد بيبرس إلى مصر أنكر عليهم هذه الأمور التى تفسخ عهدهم ثم أمر بإحراقهم فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاى أتابك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيمة ما أحرق وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار فى كل عام فأطلق صراحهم وتولى بطريقهم دفع الأموال المطلوبة والتعهد بألا يعودوا إلى فعل شيىء من المنكرات وألا يخرجوا عما هو مقدر لأهل الذمة[1] وكان عهد الناصر أكثر عطفا على النصارى ممن سبق من سلاطين المماليك . حتى أنه أمر بإعادة كل من طرد منهم إلى وظيفته ومنع عنهم الأذى . اللهم إلا إذا استثنينا بعض الحوادث العارضة التى كانت تؤدى إلى تغير السلطان والعامة . أما مرسوم الملك الناصر بتميز عمائمهم فكان له ما يبرزه وهو ما كان يخشاه من عيون النصارى

---

(١) انظر د / على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ١٤٩ - النهضة المصرية سنة ١٩٦٧ .

(٢) انظر د / جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٣ - دار الفكر العربى ١٩٦٠ .

الباقين من الحملة الصليبية وأن يكون بعض الذميين عيونا لهم[١] وحتى لا يبث من يميلوا إلى الصليبيين سمومهم فى الجماعة الإسلامية فالمعاملة كانت من جنس العمل . حيث أحسن سلاطين المماليك إلى أهل الذمة طالما التزموا بواجباتهم وجهدهم حماية للأمة الإسلامية . وذلك ما يقتضيه العقل السليم والشرع وخلاصة القول " أنّ الموقف الرسمى لسلاطين المماليك تجاه رعاياهم لغير المسلمين من خلال الوثائق الكثيرة التى خلفها لنا ذلك العصر[٢] كانت تحفظ لأهل الذمة حقوقهم ومصالحهم . فقد حددت المراسيم من السلاطين والأمراء طوال عصر المماليك التى تحفظ لأهل الذمة حقوقهم .

---

(١) انظر / د محمد محمد أبو زهرة : ابن تيمية حياته وآراؤه الفقهية ص ٦٣ - دار الفكر العربى .

(٢) للاطلاع على تلك الوثائق راجع / قاسم عبده : أهل الذمة فى مصر ص ٤٤ - دار المعارف سنة ١٩٨٣ .

الفصل الثانى

نهايـة الدولـة المملوكيـــة

" الفصل الثانى "

نهاية الدولة المملوكيـــــة

أسباب سقوط الدولة المملوكيـــة :-

تعرضت الدولة المموكية إلى عوامل عديدة متشابكة كانت سببا فى أنهيـــار تلك الدولة التى حكمت لمدة قرنين ونصف من الزمان . فهناك عوامـــــل داخلية تكمن فى انهيار الأنظمة والفساد فى كيان الدولة المموكيـــــة هذا إلى جانب العوامل الخارجية التى كانت بمثان المعجل لسقوط الدولـة التى كانت على حافية الإنهيـــار .

اولا : العوامل الداخليـــة :-

حيث دبت الشيخوخة فى أوصالها واعترى [1] الفساد فى نظمهـــا . فعجزت عن الإحتفاظ بكيانها وسرى الضعف فى دولة سلاطين المماليـــك ويرجع هذا الضعف إلى عوامل أساسية تتعلق بالنظام الذى قامت عليه الدولـة المملوكية وأهم هذه العوامل :-

١ - فساد النظام الإقطاعـــى :-

الدولة المموكية دولة إقطاعية حيث أن الأرض ملك للسلطان ... الـــذى يقوم بتوزيعها على الجنود . وأى هزة زراعية معناها أنهيار النظام ، وبالتالى الدولة لذا حرصت الدولة عندما عجزت على تلبية احتياجاتها إلى فـــــرض ضرائب جديدة على الشعوب مما يؤدى إلى قيام اضرابات كانت معجلـــــة لنهاية الدولة المملوكيـــة .

---

(١) انظر د / نعيم ذكى طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب فـــى أواخر العصور الوسطى ص١٣ الهيئة المصرية العامه للكتاب س ١٩٧٣ .

٢ - إختلال نظام المماليك الإجتماعى والحربى : -

اختل النظام الإجتماعى والحربى نتيجة لإهمالهم الأسس التى قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الأولى . حيث كانوا يصلون إلى مصر صغاراً يتعلمون الطاعة يتحلون بالدين والأخلاق . وأدرك مؤرخوا ذلك العصر الدور الحيوى فى سلوك المماليك فيذكر ابن تغرى لغا ذلك فيقول " لله در ذلك الزمان وأهله ما كان أحسن تدبيرهم وأصوب حرسهم من جودة تربية صغيرهم وتعظيم كبيرهم حتى ملكوا البلاد ودانت لهم العباد واستجلبوا خواطر الرعية فنالوا الرتب السنية "(١) وجعلها المقريزى من مفاخر السلطان قلاوون حيث قال " لو لم يكن من محاسنه إلا تربية مماليكه وكف شرهم عن الناس لكفاه ذلك عند الله"

هذا الجانب الى خضوع المملوك لتربية عسكرية فى مرحلة الشباب فأصبحت لديهم القوة العسكرية والتى قاد أمرها الروح الإسلامية فكان لهم مواقف عظيمة فى الجهاد ولكن سبحانه وتعالى يغير ولا يتغير . حيث تولى الحكم سلاطين أهملوا ذلك الجانب التربوى . وجلب المماليك وهم فى سن الشباب وتلك عملية خطيرة إذ أن قدوم المماليك من مناطق مختلفة وهم فى هذا السن جعل الأفكار متضاربة مما أفقدهم روح النظام والطاعة وحل محلها العصيان والتمرد وكانت الطامة الكبرى جهلهم الأمور

---

(١) ابن تغرى النحوم الواهره جـ ٨ ص ٢٢٨ الموسسة المصرية العامه .

الشرعية والعسكرية معا، وفى عهد الناصر فرج[١] أهمل شأن المماليك حتى صاروا من أرذل الناس وأدناهم وأخطهم قدرا وأشحهم نفعا وأجهلهم بأمر الدين ، وأكثرهم إعراضا [٢] وفى ذلك يقول الله " وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً "[٣] فكان ذلك سبيلهم إلى الإنحراف .

٣ - إنحراف المماليك :-

انتشر الفساد فى كيان الدولة المملوكية ويذكر أن الناصر فرج كما يحدثنا عنه بن إياس : أنه جعل شرب الخمر من شعائر المملكة عام ٧٩١ هـ - س ١٣٨٩ م فكان الأمراء يجتمعون فى الميدان الذى تحت القلعة يشربون ويسكرون بحضور السلطان [٤]. وانتشر اللهو والمجون والتبذل وفى ذلك بلاء عظيم حيث تجاهروا بالمنكرات فكثرت ذنوبهم وفى ذلك يقول بن القيم " ومن عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقمة

---

(١) الناصر فرج : هو السلطان فرج بن السلطان برقوق أول ملوك الجراكسه كان الناصر هذا اعظم الناس حزلانا لدين الاسلام واشتهم طلعه على المسلمين والعجيب أنه لما ولد أقيل يلبغا الناصرى ومتناشن فيشربه اباه فسماه (بلفاق) يعنى فتنه . فلما خلص ابوه من سجن الكرك سماه فرجا فكان أسمه الاول وهو الحقيقى . انظر بن حجر العسقلانى : أنباء الغمر بأبناء العمر جـ٢ص ٥١١ .

(٢) انظر/ على مبارك : الخطط التوفيقية جـ١ ص ١٣٤ الهيئة المصرية العامه س ٦٩ .

(٣) سورة طه آيه ١٢٤ .

(٤) ابن تغرى : النجوم الزاهره جـ ص . الموسسه المصريه العامه .

فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب

كما قال علي بن أبي طلب رضي الله عنه ما نزل بلاء إلا بذنب

ولا رفع بلاء إلا بتوبة[١] وقد قال الله تعالى "وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ"[٢] وقال تعالى "ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ"[٣] وفي ذلك يقول الشاعر :-

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وتكاسلوا عن الجهاد فانطبق عليهم قول الإمام بن تيميه "إن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم وألف بينهم ، وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس[٤] بعض" فكان حالهم هكذا حيث تفرقت كلمتهم وصاروا أحزابا وشيعا[٥] .

وصارت بينهم الحروب المتفاقمة . وتقاتلوا في حارات القاهرة وضواحيها وتولى الحكم سلاطين ليس لهم من الحكم إلا سم لصغر سنهم ، فتسارع الأمراء واستبدوا بالسلطة . فكان يتولى الحكم في السنة الواحدة

---

(١) ابن القيم : الجواب الكافي ص ٤٩ مكتبة المتبلي

(٢) سورة الشورى آية ٣٠ .

(٣) سورة الانفال آية ٥٣ .

(٤) بن تيمية : الفتاوى الكبرى جـ ٥ ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٥) أنظر / علي مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ١٤٥ الهيئة المصرية العامة .

أكثر من سلطان .فكانت مدة حكم بعضهم لا تتعدى شهرين فأصيحت لهم قلاقل واضطرابات استمرت سنوات[١] مثلما حدث في س ٨٨١ هـ - س ٨٨٣ هـ وغير ذلك من الفتن وأنتشر الظلم في البلاد فكان ذلك طريق السقوط حيث قيل أن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لقومه وعشيرته فقدرشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتهم وتولي مقاليد الحكم ولكن النبي صلى الله عليه وسلم بين لنا أن دوام الملك بالخلق وحده .

عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الأئمة من قريش ولي عليكم حق عظيم ولهم ذلك إذا ما فعلوا ثلاثاً : إذا استرحموا رحموا ، واذا حكموا عدلوا ، واذا عاهدوا وفوا . فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين[٢] فهذا الحديث حاسم في أنه لا مكانة لأمة ولا لدولة ولا لأسرة إلا بمقدار ما تمثل في العالم من صفات عالية .[٣] فكأن كثرة الظلم والفساد داعياً إلى السقوط .

---

(١) أنظر د / عبد المنعم ماجد طوماى طوماى باى ص ٦٨ مكتبة الانجو المصرية س ١٩٧٨ .

(٢) مسند الامام أحمد بن حنبل . منتخب كنز العمال في سنن الاقوال والافعال المجلد الثالث ص ١٢٩ دار الفكر العربي .

(٣) انظر / محمد الغزالي : خلق المسلم ص ٣١ دار الكتب الاسلاميه .

٤ - أنتشار الرشوة والمحسوبية :

إنّ الرشوة والمحسوبية إذا ما أنتشرت فى المجتمع تقضى عليه كما تقضى المكروبات والأمراض الخبيثة على الإنسان .

ولذا نجد الشارع يحرم ذلك فيقول الله تعالى " وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١) " " يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ (٢) "

وروى الترمذى بسنده عن عبد الله بن عمر ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لعن الله الراشى والمرتشى " (٣)

وقال العلماء الراشى هو الذى يعطى الرشوة والمرتشى هو الذى يأخذ الرشوة . وإنما تلحق اللعنة الراشى إذا قصد بها أذية مسلم أو ينال بها مالم يستحق . (٤)

وأصبحت الرشاوى والمبذولات هى القاعدة المتبعة فى تولى الوظائف والمشكلة أنها أصبحت هى القاعدة فى تولى وظيفة الحسبة

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٢) سورة النساء آية ٢٩ .

(٣) مسند الامام بن حنبل - المجلد الثانى ص ٣٨٧ دار الفكر العربى .

(٤) أنظر / الذهبى : الكبائر ص ١٤٣ - مكتبه المتبنى .

فيذكر أنه خلال حكم السلطان الناصر فرج أصبح من الممكن أن نجد ثلاثة أو أربعة تعيينات[١] في شهر واحد وانتشرت المحسوبية التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسباب سقوط المجتمعات فعن عائشة رضى الله عنها قالت كانت مخزومية تستعير المتاع وتجحده فأمر النبى صلى الله صلى الله عليه وسلم بقطع يدها فأتى أهلها أسامة بن زيد فكلموه فيها فكلم النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى يا أسامة لا أراك تشفع في حد من حدود الله تعالى ثم قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا فقال "إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه : والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها فقطع يد المخزومية"[٢].

فالمحسوبية تعطى الشيء لمن لا يستحق وانتشرت في عهد السلطان برقوق حيث أنعم على قريبة الأمير قجماس بأمراء المائة وتقدمه ألف بالديار المصرية، وهو آنذاك لا يحسن تلك اللفظ بالشهادتين[٣].

اللفظ

---

(٢) انظر / د . سهام مصطفى أبو زيد : الحسبة فى العصر المملوكى الهيئة المصرية العامة الكتاب ص ١٩٨٦ .

(٢) سنن النسائى - شرح الحافظ السيوطى - الجزء السابع والثامن المكتبة العلمية بيروت - لبنان ص ٧٥ .

(٣) انظر / بن تغرى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٩٨ - الموسسة المصرية العامة .

ثانيا : العوامل الخارجيـــة :-

تعتبر العوامل الخارجية بمثابة المعجل لسقوط الدولة المملوكيـــــة التى أصبح سقوطها نتيجة حتمية بسبب انهيارها الداخلى .

١ - الصراع بين المماليك والبرتغاليين :-

عاشت الدولة المملوكية عيشة مترفة نتيجة للدخول الكبيره التى حصلـــت عليها عن طريق التجارة فى المياه الشرقية والتحكم فيها بين الشرق والغـــرب[(١)] إذ أنه من المعروف أن حركة المغول التوسعية أدت منذ القرن السابـــــع الهجرى الثالث عشر الميلادى إلى ضياع[(٢)] أهم طرق التجارة الرئيسيـــــة المألوفة بين الشرق والغرب وبخاصة طريق الخليج الفارسى والطريق الـــبرى المار بسمرقند ، وبذلك لم يبق أمام الدول طريق آمن بعيدا عن عبـــــث المغول سوى طريق البحر الأحمر ومصر .

وقد استغل سلاطين المماليك تلك الفرصة فحققت لهم دخلا كـــبيرا . ففرضت ضرائب باهظة على الواردات الأوربية . فبدأت الجهود لاكتشـــاف طريق آخر غير طريق مصر فكان اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجـــــاء الصالح وتلك كانت أكبر كارثة تعرضت لها الدولة المملوكية نتيجة لذلـــــك

---

(١) أنظر / د . نعيم ذكى : طرق التجارة الدوليه بين الشرق والغـــرب اواخر العصور الوسطى ص ٣٧١ الهيئة المصرية العامه الكتاب س١٩٧٣

(٢) أنظر / د . عبد الرحمن الرافعى ، سعيد الفتاح عاشور : مصـــــر فى العصور الوسطى ص ٥٢٨ .

الإنقلاب المفاجئ في طرق التجارة الدولية مما حرم سلاطين المماليك من المورد الأول الذى استمدوا منه أسباب قوتهم [١] وعظمتهم وأدركوا خطورة الأمر فدخلوا فى حروب مع البرتغاليين إلا أنها باءت بالفشل وكسب النصر الطريق الجديد [٢] فلجأ سلاطين المماليك إلى فرض ضرائب مما أدى إلى حدوث أضطرابات وثورات عنيفة .

٢ - الإضطرابات الخارجية :-

جاءت من الخارج فقد اعتاد أمراء سوريا بأن يقوموا بحركات ثورية عنيفة ، شغلت جزءا كبيرا من جهود السلاطين لقمعها هذا إلى جانب غارات البدو المتكررة . وغزو المغول فى عهد تيمور لنيك . ومضايقات قراصنة الفرنجة [٣] فى البحرين الأبيض المتوسط والأحمر .

٣ - الصراع مع الدولة العثمانية :-

سادت علاقات الود بين الدولة العثمانية والمملوكية فترة من الزمن حيث إن الدولتين يربطهما ببعض الدين الإسلامى ولعل الذى يدل على ذلك هو ترحب المماليك ترحيبا واضحا بالإنتصارات التى حققها العثمانيون

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٥٢٨ .

(٢) انظر / د . أحمد شلبى : موسوعه التاريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٢٦٣- مكتبه النهضة ١٩٩٠ .

(٣) انظر / د . على ابراهيم : استخدام المصادر وطرق والبحث ص ٣٣ .

ضد بيزنطة ، وعندما سقطت القسطنطنية شاركت[١] مصر وسوريا العثمانيين في أفراحهم وفي مواكب النصر التي ازدهرت هنا وهناك بمناسبة هذا الحدث البهيج . ولكن العلاقات اتخذت طابعا آخر يتسم بالتوتر في عهد السلطان قايتباى سلطان الدولة المملوكية والسلطان بازيد الثاني سلطان الدولة العثمانية فكانت تلك المناوشات[٢] مقدمة لحروب عديدة أنتهت بسقوط الدولة المملوكية على أيدى العثمانيين في موقعة الرايدانية ١٥١٧ م .

ومن أسباب أنتصار الدولة العثمانية الأسباب التي ذكرناها في سقوط الدولة المملوكية حيث كانت في مرحلة الشيخوخة على عكس الدولة العثمانية هذا إلى جانب تميز الدولة العثمانية باستقرار نظمها وتفوق أسلحة الجيش العثماني الذى أعتمد على الأسلحة النارية المتقدمة مع أعتماد المماليك على البطولة الشخصية .

وكان للإسلام عامل مهم في ميزان الدولة العثمانية إذ أن الدولة المملوكية أنتصرت على الصليبيين والمغول نتيجة لرفع راية الجهاد . أما في تلك المرة فالزاحف دولة إسلامية تشيد باجتماع[٣] كلمة المسلمين .

---

(١) انظر / د . أحمد شلبى : موسوعة التريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٢٨١ - مكتبه النهضة ١٩٩٠ .

(٢) أنظر / د . نعيم ذكى : طرق التجارا الدوليه بين الشرق الغرب اواخر العصور الوسطى ص ٣٢ .

(٣) أنظر / د . أحمد شلبى : موسوعه التاريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٢٦٤ - مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

سقوط الدولة المملوكية :-

نتيجة للأسباب التى سبق ذكرها أصبح سقوط الدولة المملوكية نتيجة حتمية .

فبطرد الصليبيين من العالم الإسلامى ونهاية المغول فى العراق وغربى آسيا ظهر فى العالم الإسلامى قوتان كبيرتان هما الدولة العثمانية والدولة الصفوية ببلاد فارس إلا أن الأولى من أنصار المذهب السنى والثانية من غلاة الشيعة فشب بينهما نزاع طويل انتهى بانتصار العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول وحدث نزاع بين السلطان قنصوة الغورى والسلطان سليم الأول أنتهت بالتقاء الجيشين العثمانى والمملوكى فى مرج دابق ١٥١٦ م وأنتصر الجيش العثمانى وقتل الغورى بعد أن دافع عن البلاد بشجاعة فائقة ولكن لم يحالفه النصر وتولى الحكم طومان باى بعد الغورى وقد حكم حكما حسنا" [1] فى المدة التى قبض فيها على صولجان الملك وكان محبوبا فى البلاد جميعا وبرهن على أنه شجاعا كريما عادلا [2] فى كل من عهدى نيابته عن قنصوه وسلطنته ويذكر أنه كان رافدا لتولى الحكم حيث كانت الدولة منهارة إلا أن العلماء ضغطوا عليه فقبلها والتقى بجيسن العثمانيين عند الريدانية ١٥١٧م وخانه بعض أتباعه به الهزيمة وشنق طومان باى على باب زويلة ويذكر أن السلطان سليم أعجب

---

(١) أنظر/ وليم موير : تاريخ المماليك البحرية ص ١٧٦ - مطبعة المعارف القاهرة .

(٢) المرجع السابق ص ١٨١ .

بشخصيته وعزم ألا يقتله لولا أن وشى به بعض الخونة فقتل وبقتله أنقطع حكم[١] المماليك الجراكسة وهذا شأن الدنيا فى أبنائها تتقلب بهم وتتحول عنهم . فسبحان من لا يزول ملكه .

---

(١) انظر / القرمانى : أخبار الدول واشار الاول فى التاريخ ص ٢٢٠ - علم الكتب بيروت - مكتبه المتبنى بالقاهرة .

الخاتمـــــــة

الخـــــاتمة

وبعد هذا العرض لسيرة الدعوة في الدولة المملوكية نخلص إلى النتـــائج التاليـــة :-

١ - الصبغة الإسلامية لدولة المماليك :

فبرغم ما قيل عن دولة المماليك من ألسنة الأدعياء الحاقدين مـــن أنها دولة قامت على الصراع وسلب الشعب حقه إلا أننا نلمح أن الدولة المملوكية قد صبغت الصبغة الإسلامية قولا وعملا بدءا وختاما دعـــوة وحربا ، ودليلنا على ذلك أن هؤلاء المماليك جيئ بهم لتكوين الجيوش الإسلامية ليحاربوا المشركين ، والدليل الثاني الدعوة والدعـــــاة والمنشآت الدعوية في تلك الدولة ، والدليل الثالث إنتصارات المدوية لتلك الدولة في كثير من المواقع الإسلامية ولا سيما عين جالوت ، والدليل الرابع : إحياء الخلافة العباسية .

٢ - الدين الإسلامي لا يرتبط بجنـــس أو لون بعيدا عن التعصب وعـــن القبليـــة وعن الجنـــس وعن اللون ، جاء الاسلام متحررا من الإرتبـــاط بقوم دون قوم ، بل جاء للناس جميعـــا ، وهذا ما حققته الدولـــــة المملوكية كمثال عملي لذلك حيث أثبتت أن الجنس واللون والأبيـــض والأسود كله في ميزان الإسلام سواء وقدمت تلك الدولة بالرغم مـــن منشأها الأعجمي انتصارات تقارب أو تزيد ما حققه العرب .

٣ - قيمة الدعوة فى نصرة الدول :

من حكمة الله فى أرضه ، ومن مشيئته فى خلقه أن جعل من أسباب النصر اتباع سبله والتمسك بحبله ، ورأينا ذلك قد تحقق عمليا ونظريا ، ففى الجانب النظرى تعهد ملوك تلك الدولة بنشر الدعوة فأيدوها بالثمين والغالى ، فأنشأوا النظم الإسلامية والمدارس النظامية والمكتبات والمدارس وانطلق الدعاة فى أرجاء الدولة معلمين الناس دينهم وأثمر ذلك فى الجانب العملى أن صارت دولة المماليك دولة مهابة الجانب قوية المجد فبمجرد ظهور قواتها على الحدود الإسلامية يطمئن الغادى والرائح والمقيم والذاهب من المسلمين على أهله وماله هذا الذى جعل تلك الدولة تجابه أكبر قوة من الهمجية على ظهر الأرض ألا وهى قوة التتار مما جعل الناس يطلقون على ملوك تلك الدولة اسم " سلاطين الإسلام " .

٤ - الحذر من أعداء الإسلام المدلسين :

ومن أهم ما توصلت إليه فى ذلك المجال أن التسمع لأعداء الإسلام فيما يبثونه بين ظهرانينا من سموم يخفى علينا الحقائق الكبرى فلولا فضل الله علينا لسقطت هذه الدولة المملوكية من تراثنا الإسلامى العميق . فلقد تعرضت دولة المماليك لحملة شعواء من المدلسين والمستشرقين والعملاء والغربيين ، وغرضهم من ذلك أن يغفل التاريخ الإنسانى تلك الدولة التى أنقذت البشرية من الهمجية والدمار ومن ثم لا يكون للمسلمين أى دور من إنقاذ البشرية من المصائب والدمار ، وعلى جانب آخر تهدف تلك الحملات الشعواء على الدول

الإسلامية وخاصة دولة المماليك إلى أن يفقد المسلم هويته ، ويفقد جذوره العريقة التي تربطه بالماضي فيعيش المسلم ممسوخا لا أصل له ولا تاريخ يسنده في المستقبل .

٥ - تسلط الأهواء يؤذن بزوال الدول :

من ضمن ما ابتليت به دولة المماليك الصراعات المستمرة بين بعض من الأشخاص ذوى النفوس المريضة فلقد تناسى أولئك النفر أواصر الصلة الإسلامية ومزقوا بعضهم من أجل دنيا زائلة ، ومتعة راحلة وكان ذلك الصراع الدموى يحتد ويبلغ أوجه عندما يموت أو يقتل الحاكم ، وتظهر الثورات والمظاهرات في الشوارع ويستمر القتل ، وهنا بلغ الجرح مداه ونخر السوس في عظام الدولة ، وتحقق فيهم وعد الله عز وجل " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . . " (١) مفهوم المخالفة

فحين عمل المماليك في آخر عهدهم بنقيض تلك الآية سلط الله عليهم عدوهم وكذلك سلط عليهم أنفسهم . فزالت دولتهم برغم ما حققته من مثل عليا وانتصارات مدوية ، وتلك حكمة الله في خلقه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

(وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم .

والحمد لله أولا وأخيرا

---

(١) سورة محمد - آية : ٧ .

قائمة المراجـــع

قائمة المراجع

(أ)

١ - إبراهيم على شرقاوى - مصر فى عصر المماليك الجراكمة - مكتبة النهضة - ١٩٦٠ ص ٧٨ .

٢ - السيوطى - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - مطبعة الموسوعات .

٣ - العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدوله المملوكية الأولى - د / فايد عاشور - دار المعارف بمصر .

٤ - القرمانى - أخبار الدول وأثار الأول فى التاريخ - عالم الكتب بيروت مكتبه المتنبى بالقاهرة .

٥ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى - ابن تغرى - تحقيق محمد محمد أمين ، سعيد عبد الفتاح عاشور - الهيئة المصرية العامه للكتاب ١٩٨٠ .

٦ - ابن كثير - البداية والنهاية - دار الفكر العربى .

٧ - الدينارى - سيرة الملك الظاهر بيبرس - بيروت .

٨ - ابن تغزى - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - الموسسة المصرية العامة .

٩ - أحمد شلبى - الخلافة العباسية - دار النهضة . ١٩٨٢ .

١٠ - إبراهيم حسين سعيد - البحرية فى عصر سلاطين المماليك - دار المعارف .

١١ - المقريزى - السلوك لمعرفة المملوك - القاهرة ١٩٧٠ .

١٢ - أبو زهرة - ابن تيمية حياته وآراؤه الفقهية - دار الفكر العربى .

١٣ - البغدادى - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة - المكتبة العربية .

١٤ - أحمد فراج - المماليك الفرنج فى القران التاسع الهجرى - دار الفكر العربى .

١٥ - أبو زهرة - الحديث والمحدثون - دار الفكر العربى .

١٦ - م د / أحمد شلبى - الحروب الصليبية بدوءها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن - دار النهضة المصرية ١٩٨٦ .

١٧ - ابن بطوطة - الرحلة - ط القاهرة ١٩٦٠ .

١٨ - أحمد صادق الجمال - الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ١٩٦٦ .

١٩ - الجبرتى تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - دار الجبل بيروت .

٢٠ - إبراهيم أحمد عبد الفتاح - القاموس القويم للقرآن الكريم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .

٢١ - ابن العمرى - مسالك المماليك .

٢٢ - أحمد شلبى - موسوعة التاريخ الإسلامى - مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

٢٣ - العينى - عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان - تحقيق محمد محمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .

٢٤ - العمرى - مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار - تحقيق دورد و تياكرا فلسكى ١٣٠١ هـ .

٢٥ - ابن العماد الحنبلى - شذرات الذهب جـ ٥ - دار الآفاق الجديدة بيروت .

٢٦ - ابن الأثير - الكامل فى التاريخ جـ ٩ - دار الفكر بيروت

٢٧ - ابن خلدون - مقدمته - دار الفكر .

٢٨ - الخطيب الجوهرى - نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان هامش .

٢٩ - ابن إياس - بدائع الزهور فى وقائع الدهور - الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٩٨٤ .

٣٠ - ابن حجر العسقلانى - التاريخ والمنهج التاريخى - دار اقرأ - ١٩٨٤ .

٣١ - الذهبى - الكبائر - مكتبة المتنبى .

٣٢ - العينى - عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى - مطبعة البابى الحلبى .

٣٣ - القلقشندى - صبح الأعشى جـ ٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ .

٣٤ - ابن الفدا - المختصر فى أخبار البشر - جـ ٤ - بيروت .

٣٥ - ابن حجر العسقلانى - أنباء الغمر بأبناء العمر - تحقيق د / حسن خيشى - القاهرة ١٩٧١ .

٣٦ - السيد وليم موير - تاريخ دولة المماليك البحرية - ترجمة محمود عابدين وسليم حسن - دار المعارف القاهرة .

— أول دورانت - قصة الحضارة - عصر الإيمان جـ ٢ تحقيق دور دوتياكرا فلسكى ١٣٤٩ م .

— د / أحمد مختار العبادى - قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام - موسسة شباب جامعة الإسكندرية ١٩٨٢ م .

(ب)

٣٧ - بيبرس المنصورى - التحفة المملوكية - تحقيق د / عبد الحميد صالح حمدان - القاهرة ١٩٨٧ .

٣٨ - بطرس البستانى - دائرة المعارف ج ٩ .

(جـ)

٣٩ - جمال الدين سرور - دولة الظاهر بيبرس - دار الفكر العربى ١٩٦٠ .

٤٠ - د / جمال عبد الهادى - أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ الطريق إلى بيت المقدس - الوفاء للطباعة والنشر .

— جزيف نسيم يوسف - هزيمة لويس التاسع من الأرضى المقدس دار الكتب الجامعية ١٩٧١ .

(حـ)

٤١ - حامد غنيم أبو سعيد - الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية جـ ٣ - دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٤ .

— حامد زيدان - صفحة من تاريخ الخلافة العباسية فى ظل دولة المماليك - دار الثقافة ١٩٧٩ م .

٤٢ - جورج زيدان - تاريخ التمدن الإسلامى - جـ ٤ - دار الهلال .

(ر)

٤٣ - راسم رشدى - مصر والشراكسة - القاهرة ١٩٤٨ .

(س)

٤٤ - سهام مصطفى أبو زيد - الحسبة فى مصر الإسلاميه من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ .

٤٥ - سعاد ماهر - مساجد مصر وأولياؤها الصالحون - ج ٣ ، ص٤ القاهرة .

٤٦ - د / سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى العصور الوسطى - دار الفكر العربى ١٣٦٥ هـ .

٤٧ - سليمان محمد الطماوى - نظام الحكم والإدارة فى الإسلام- دار الفكر العربى .

(ش)

٤٨ - شحاته عيسى إبراهيم - القاهرة تاريخها ونشأتها - دار الهلال

(ع)

٤٩ - د / على أحمد الخطيب - مجلة الأزهر عدد مايو ١٩٩٣ .

٥٠ - د / عبد المنعم عبد الماجد - طومان باى آخر سلاطين المماليك فى مصر - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨ .

٥١ - على إبراهيم حسن - تاريخ المماليك البحرية - النهضة المصرية ط ٣- ١٩٦٧ .

٥٢ - على مبارك - الخطط التوفيقية - ج ١ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٩ .

٥٣ - د / على السيد على - القدس فى العصر المملوكى . دار الفكر للدراسات والنشر .

٥٤ - د / عبد الطيف حمزة - الحركة الفكرية فى مصر - دار الفكر العربى - ١٣٦٥ .

٥٥ - د / عبدالغنى محمود - التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك - دار المعارف .

٥٦ - د / على سالم النباهين - نظام التربية الإسلامية فى عصر دولة المماليك دار الفكر العربى .

٥٧ - د / عبد الرحمن الوافعى - مصر فى العصور الوسطى - دار النهضة ١٩٧٠ .

٥٨ - عبد الرحمن الجزيرى - الفقه على المذهب حاشية - دار الفكر العربى .

٥٩ - د / عبدالكريم زيدان - أصول الدعوة - مكتبة القدس .

٦٠ - عبد الرحمن الجبرتى - تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - دار الجيل بيروت .

٦١ - على محفوظ - الإبداع فى مضار الإبتداع - دار الإعتصام .

(ف)

٦٢ - د / فايد حماد عاشور - العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى - دار المعارف ١٩٨٢ .

٦٣ - د / فؤاد عبد المعطى - المغول فى التاريخ - من جنكيز خان إلى هلاكو - القاهرة ١٩٦٠ .

٦٤ - فتحية النبراوى - تاريخ النظم الإسلامية - دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

(ق)

٦٥ - د / قاسم عبده - دراسات فى تاريخ مصر الإجتماعى عصر سلاطين المماليك دار المعارف ١٩٨٣ .

(ك)

٦٦ - كمال الدين صالح - العمارة الإسلامية - القاهرة .

(م)

٦٧ - أد / محمد أحمد دياب - محاضرات فى تاريخ الدعوة الإسلاميه - أسيوط .

٦٨ - د / محمد يوسف موسى - ابن تيمية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١ .

— محمود شلتوت - السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد - دار الكتاب العربى ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ .

٦٩ - د / محمد محمد أبو زهرة - ابن تيمية حياتة وآراؤه الفقهية دار الفكر العربى .

٧٠ - د / محمد جمال الدين سرور - دولة الظاهر بيبرس دار الفكر العربى ١٩٦٠ .

٧١ - محمد عبد العزيز مرزوق - الناصر محمد ابن قلاوون - المؤسسة المصرية العامة .

٧٢ - محمد محمد أمين - الأوقاف والحياة الإجتماعية فى مصر . دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

٧٣ - محمد بن على الإسحاقى - أخبار الأول فى من تصرف فى مصر من أرباب الدول القاهرة .

٧٤ - د / محمد كمال الفقى - الأدب فى العصر المملوكى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .

٧٥ - محمود رزق سليم - عصر سلاطين المماليك - القاهر ١٩٦٠ .

٧٦ - محمد الغزالى - ليس من الإسلام - مكتبة وهبة .

٧٧ - محمد الغزالى - خلق المسلم - دار الكتب الإسلامية .

٧٨ - د / محمد رفعت ومحمد حسونة - معالم تاريخ العصور الوسطى المطبعة الأميرية ببلاق ١٩٣٤ .

(ن)

٧٩ - نظير حسان سعداوى - صور ومظالم من عصر المماليك - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ .

٨٠ - د / نعيم زكى - طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

(و)

٨١ - وليم موير - تاريخ المماليك البحرية - مطبعة المعارف القاهرة .

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الموضـــــوع	رقم الصفحة
شكر وتقديـــــر واجلال	
المقدمـــــــة	أ ـ د
الباب الأول : المماليك	١
الفصل الأول : نشأة المماليك	١
ـ أصل المماليك	١
أولا : ظهور المماليك فى العالم الإسلامى	٣
ثانيا : ظهور المماليك فى مصـــر	٣
ثالثا : طريقة ترتيبهـــم	٣
رابعا : كيفية انتقال السلطة من الدولة الأيوبية إلى الدولة المملوكية	٥
خامسا : العوامل التى ساعدت على نشوء دولة المماليـــك	١٠
الفصل الثانى : الحالة السياسية والحيـــاة الإجتماعية فى العصر المملوكى	١٤
أولا : الحالة السياسية فى العصر المملوكى	١٤
ثانيا : الحالة السياسية بعد عودة الخلافـة العباسيـــة	١٦
ثالثا : الحياة الإجتماعية فى العصر المملوكى	١٧

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
الفصل الثالث : الحركة العلمية فى العصر المملوكى	٢٩
أولا : التعليم فى المكاتب	٣٠
ثانيا : التعليم فى المدارس	٣١
ثالثا : المســـاجد	٣٥
* مظاهر ازدهار الحركة العلمية فى (العصر المملوكـــى)	٣٧
الباب الثانى : المظاهر العامة للدعوة الإسلامية فى العصر المملوكى	٤٢
الفصل الأول : دور سلاطين المماليك فى خدمة الدعوة الإسلامية	٤٢
أولا : إحياء الخلافة العباسية	٤٣
ثانيا : محاربة الفســـاد	٤٣
ثالثا : محاربة البدع والفتن	٤٨
رابعا : القضاء على فرقة الحشاشين بسوريا	٥١
خامسا : الدعوة إلى الله بالسلوك وأعمال البر	٥٣
سادسا : إعمار المساجد	٥٧
سابعا : إكرام العلماء والدعاة	٥٩
ثامنا : تعظيم الأماكن المقدسة	٥٩
تاسعا : تربية النشئ من المماليك تربية إسلامية	

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
الفصل الثانى : دور سلاطين المماليك فى الدفاع عن البلاد الإسلامية	٦٥
أولا : الجهاد ضد التتار	٦٦
* بداية الصراع بين المماليك والمغول	٦٧
* معركة عين جـــالوت	٦٩
* نتائج معركة عين جالوت	٧٠
* مسيرة الجهاد ضد المغول بعـــد عين جـالوت	٧١
* موقعة حمـــص	٧٢
ثانيا : الجهاد ضد الصليبيين	٧٤
ثالثا : جهاد المماليك مع البقايا الصليبيـــة فى الشـــرق	٧٥
* المماليك وأرمينيـــا الصغرى	٧٥
الفصل الثالث : الفتوحات الإسلامية فى العصـــر المملوكـــى وأثرها فى خدمة الدعـــوة الإسلاميـة	٧٧
أولا : أهم الفتوحات الإسلامية فى عهـــد الظاهر بيبـــرس	٧٧
١ - فتح قيسارية الشام	٧٨
٢ - فتح أرســـوف	٧٩
٣ - فتح صفـــد	٧٩

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
٤ - حملات تأديبيـــة	٨١
٥ - فتح إنطاكيـــة	٨٢
٦ - فتح حصن الأكراد وحصن عكار القرين	٨٣
ثانيا : أهم الفتوحات الإسلامية فى عهد السلطان قلاوون	٨٤
١ - فتح المرقـــب	٨٤
٢ - فتح طرابلـــس	٨٥
ثالثا : أهم الفتوحات الإسلامية فى عهد الأشرف خليل ابن قـلاوون	٨٦
١ - فتح عكـــا	٨٦
٢ - نهاية الصليبيين بالشـــام	٨٨
* نتائج الفتوحات الإسلامية فى عصر سلاطيـــن المـــاليك	٨٩
الفصل الرابع : أبرز علماء العصر المملوكى وأثرهم فى نشر الدعوة الإسلامية	٩٣
١ - العز بن عبد السلام	٩٥
٢ - ابن تيميـــة	٩٨
٣ - ابن حجر العسقلانى	١٠٤
٤ - جلال الدين السيوطى	١٠٧
٥ - بدر الدين العينـــى	١٠٩

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
الباب الثالث: الدولة المملوكية بين الشبهات والسقوط	١١١
الفصل الأول : مزاعم ومفتريات حول الدولـــة المملوكيـــة	١١١
أولا : اتهام المماليك بالديكتاتورية	١١١
ثانيا : اتهام المماليك بالسكر والمجون والعربدة	١١٥
ثالثا : إتهام السلاطين المماليك باضطهـــاد أهل الذمة	
الفصل الثاني : نهاية الدولة المملوكية	١٢٢
* أسباب سقوط الدولة المملوكية	١٢٢
أولا : العوامل الداخلية	١٢٢
ثانيا : العوامل الخارجية	١٢٩
الخاتمـــــــة	١٣٤
قائمة المراجـــع	١٣٧
المحتـــــويات	١٤٥